رشحات قلم . . .!

فى خريف عام ١٩٦٨ التحق ولدى « خالد » بالجامعة الأمريكية فى بيروت ، فعنّ لى أن أوجه إليه « رسائل » هى فى الواقع « خطاب » لكل طالب عربى أنّى كانت إقامته ، إذ أنظر لكل شاب عربى نظرتى إلى وحيدى « خالد » ، وأتمنى له ما أتمناه لولدى من الخير والغنم !

وهذه « الرسائل » الملونة .. المنوعة .. التى أزفها لكل طالب عربى تكمل سلسلة « الرسائل » التى سبقتها بأقلام جهابذة أعلام أمثال :

١ ــ الخليفة عمر بن الخطاب . وقد وجه رسائله إلى ابنه « عبد الله » حين خرج مغتر باً غربة قصيرة .

٢ ــ الإمام على بن أبى طالب ، وقد كتب لولده « الحسن » ناصحاً وموصياً ومذكراً ، ولم يخص فى إحدى رسائله ولده « الحسن » وحده ، بل خص بها كذلك ابنه « محمد بن الحنفية » .

٣ ــ خالد بن صفوان المنقدى ، جليس عمر بن عبد العزيز وهشام ، وقد كتب إلى ولده ناصحاً .

٤ ــ المهلب بن أبى صفرة ، وقد كتب إلى أبنائه رسائل طواها على النصح والتوجيه .

٥ ــ عبد الملك بن صالح بن على العباسى ، من زعماء العباسيين ، وقد كتب إلى ولده ناصحاً .

٦ — موسى بن سعيد وقد وجه رسالة نثرية وأخرى شعرية إلى ولده على بن سعيد (وهما فى الأندلس) .

ومن الآباء المعاصرين الذين كتبوا رسائل إلى بنيهم وحزموها فى كتب مستقلة خرجت للنور :

١ — جرجى زيدان إلى ولده « إميل » .

٢ — حافظ عوض إلى ولده « جلال الدين » .

٣ — أحمد أمين إلى ولده « محمد » .

٤ — الدكتور محمد حسين هيكل إلى ولده « أحمد »

٥ — خليل السكاكينى إلى ولده « سرى »

٦ — إسماعيل مظهر إلى ولده « جلال »

٧ — بولس سلامة إلى حفيده « فادى »

٨ — محمد فاضل الجمالى إلى ولده « عباس »

٩ — شكرى شعشاعة إلى ولده « نزار »

ورجائى أن يقتبس كل طالب عربى من هذه «الرسائل» الملونة .. المنوعة . . « عظات » قد تفيده فى حياته العملية و« دروساً » قد تفضى به إلى مستقبل حافل بالطمأنينة وهدأة البال ، و« عبراً » قد تجنبه مزالق الحياة وتدفع عنه عثرات الزمان !

والله من وراء القصد !

عمان — الأردن

البدوى الملثم

يا ولدى !

يا ولدى ! والكون فى كفّه فابسم لنا يا ولدى يبسم
وعش لنا أمنيةً عذبةً وانعم وغرّد وابتهج واسلم

« أنور العطار »

obeikandl.com

obeikandl.com

خالد العودات

obeikandl.com

obeikandl.com

١

غادرتنى إلى بيروت للالتحاق بالجامعة الأمريكية شفاء لطموحك، وتحقيقاً لأهدافك ، فوثب قلبى من موضعه ، ولزمنى القلق لبعدك عنى ، ولحرمانى حديثك الطلى ، ونحن جلوس حول المائدة ، ورأيك فى الناس ونظرتك إلى الحياة !

لكننى تحاملت على ضلعى عندما تذكرت أنك طالب علياء ، وخاطب مجد ، ودعوت الله أن يحقق أمانيّ فيك ويرينى إياك رجلاً له وزنه فى هذه الحياة !

هذه الكلمة هى باكورة « رسائل » أخصك بها وأوجهها إليك كلما خطر لى نصحك ومجاذبتك حبل التراسل لما فيه خيرك ونفعك !

فأستودعك الله وأودعك — إلى حين — بقول « موسى بن سعيد المغربى » الشاعر الأديب الكبير عندما خرج ابنه « على » مغتربا ، فودعه بقصيدة مشهورة قال فيها :

أودعك الرحمن فى غربتك ... مرتقباً رحماه فى أوبتك
وما اختيارى كان طوع النوى ... لكننى أجرى على بغيتك
فلا تطل حبل النوى إننى ... والله أشتاق إلى طلعتك !

٢

كانت باكورة رسائلى إليك يا « خالد » الرسالة التى وجهتها إلى أخى الشاعر المهجرى الكبير الأستاذ ميشيل مغربى (نزيل سان باولو — البرازيل) وأنت فى المرحلة الابتدائية ، وفيها صورت « الصراع » المحبب لنفسك ولنفسى ونحن نلعب الشطرنج !

وللعظة التى توخيتها فى خاتمة هذه الرسالة عنّ لى إثباتها فى الحيز التالى :

« سألنى أخى النازح الغريب الشاعر ميشيل مغربى ؛ عما أصنف فى هذه الأيام ، وسألنى عن أمتع ساعات يومى .. ! وزاد على تساؤله قوله :

هل أمتع ساعات يومك الساعة التى تشرب فيها قهوة الصباح مع قرينتك ؟ أو أن أمتعها ، الساعة التى ترى فيها أولادك ذاهبين آئبين بين الدار والمدرسة ؟

أو أن أمتعها تلك الساعة التى تراهم مقبلين على دروسهم ، موفقين فى صفوفهم ؟ » .

الواقع يا أخى أن الساعات التى ذكرتها حية فى نفسى ، ولكن أمتعها الساعة التى أجلس فيها إلى وحيدى « خالد » لنلعب الشطرنج ، فأقسوا عليه تارة ، وأرأف به أخرى !

وعندما يأخذ اللعب طريق الجد ، وتقرب نهاية « الدق » أسرف فى مداعبة « خالد » بكلمات تثير مشاعره . . !

وأجمل ما أردده فى لعبى ، فيستثير ضحكى ، ويبعث الانفعال فى نفس « خالد » « الرحمات » التى أخص بها « الشاه » الدائخ ، وتعدد حسناته . . . ومآتيه . . . فى حياته !

وهنا يستشيط « خالد » غيظاً ويقول لى بلهجة الطفولة البرئية : « بلاش مسخرة يا بابا ! » غداً سأكبر ، وأغدو شابًّا ، صلب العود ، مفتول العضل !

أسمع هذا من « خالد » فأضحك ملء شدقى . . . وأوسع « الشاه » تجريحاً وتشريحاً ، وينتهى « الدق » على غير رضا « خالد » ، فيبارح طاولة اللعب ، إلى مقعده ، ويأخذ فى تهديدى بالغد المرتقب !

عندها أملأ جو الدار ضحكا . . وأقبل على ولدى معانقاً . . مخاطباً بقولى : « غداً ستكبر يا " خالد " بإذن الله ، فيشتد ساعدك ، وتروى لبنيك نوادرنا ودعاباتنا ، وتلهو معهم كما ألهو معك ! »

فيضحك « خالد » ضحك الواثق من نفسه . . . وتشيع الغبطة فى قسمات وجهه ، ويعود إلى هز ساعده ويقول لى :

« غداً سترى يا أبت العجائب !

غداً سيشتد هذا الزند فأردى " شاهك " ، وأترحم عليه كما تترحم على " شاهى " ، وأرثيه بالعبارات التى ترثى بها ، "شاهى" المسكين ! » .

هذه هى أمتع ساعات يومى يا « أبا الحافظ »[١]. وأتمنى على الله أن أظل غارقاً فى هذه المتعة . متعة صراعى مع « خالد » فى الشطرنج ، ليأخذ « درساً » قاسياً فى مصارعة الحياة ويقبس « عظات » فى التعويل على ساعده اللدن اليوم .. والمفتول غداً بإذن الله !

٣

النصائح التى أسديكها هى حصيلة التجارب التى مررت بها خلال سنى عمرى ، وإذا ما وجهت إليك بعض ما يخطر منها فى البال ، فهدفى تزويدك بالحكمة ، وإضاءة طريقك ، لتتفادى الجادة الشائكة ، ولتسلك السبيل القويم ، ولتفرق الخيط الأبيض من الخيط الأسود !

صدقنى يا « خالد » أن نصيحة يقدمها لك شيخ عركته التجاريب عرك الرحى ... هى فى نظرى خير من ألف شهادة وألف وألف « دكتوراه » !

فدعنى أتحدث إليك بما يخطر فى البال ... وكأننى أتحدث إلى جيلك العربى الصاعد !

والناس يا بنى « أحاديث » ... فإن استطعت أن تكون أحسنهم حديثاً فافعل ... ولست بنادم !

---

(١) « أبو الحافظ » كنية الشاعر الأستاذ مغربى .

٤

هدفى من دراستك الجامعية إبعادك عن « الوظيفة » وتسليحك بشهادة مهنية تغنيك عن العمل الحكومى الذى بلاه والدك حوالى أربعين سنة !

فالوظيفة ياولدى رزقها محدود ... فى حين أن العمل الحر بحر واسع لا قرار له ، وإذا شئت حياة كريمة لك ولأسرتك القادمة ، فابذل من الجهد ما يوفر لك عيشاً كريماً ، ومهنة حرة تعوّل عليها فى مستقبلك !

الموظف يا « خالد » « طفيلى » يعيش على فتات الموائد ، ومورده محدود ، ورزقه مكدود ، فاهرب من (الوظيفة) هربك من الأسد ... واذكر كلمة عمر بن الخطاب :

« حرفة يعاش بها خير من سؤال الناس ! »

وترحم معى على فقيد أدبنا المعاصر مارون عبود القائل من قصيدة بعنوان « الوظيفة » :

فكم كانت على الأوطان حرباً وغير الشعب ما التهمت لظاها !

٥

تعلم يا ولدى أن جدك والدى كان يطمع بأن يرانى « طبيباً » ، وقبل أن يلحق بربه أوصى شقيقيه بأن ينفقا سهمه من الثروة على تعلمى « الطب » ومات . رحمه الله . وهذه أمنيته !

ولكن أخويه . غفر الله لهما . ضربا بوصية جدك عرض الحائط . .

وكل ما أرجوه يا ولدى أن تحقق أمنية جدك ، فتتعلم تعلماً جامعياً ولك ملء الخيار فى المهنة التى تستسيغها . والله محقق فيك أمانى جدك ، ودعوات والدك !

٦

لحظت أن الجامعة الأمريكية تغص بالطلبة من كل جنس ووطن . . .

والذى أود أن أقوله لك أنك تعيش فى حاضرك بين خليط من الناس . . .

ولذا أرجو أن تكون حذراً فى اختيار الأصحاب . . . وعليك أن تبتعد عن كل « لعوب » من زملاء الدراسة . وإن شاباً مثلك فى وسعه أن يحسن اختيار الأصحاب ، من صفوة الطلاب . ويفتش عن الزميل المجد فى دراسته ؛ لأن عليك واجباً نحو أمتك و وطنك ، و والديك وأخواتك !

وأخيراً أقول لك ما قال النبى العربى الكريم فى معاوية بن أبى سفيان : « اللهم علمه الكتاب والحساب . وقه العذاب ! »

٧

بانتقالك يا « خالد » إلى الجو الجامعى فى بيروت ستواجه بيئة جديدة بعيدة عن البيئة المحافظة التى عشتها فى الأردن . وستلاقى « وجوها » غير « الوجوه » التى عرفتها فى مسقط رأسك !

وبرغم هذا التباين فى البيئة وقسمات الوجوه أوصيك يا بنى بالحفاظ على تقاليدنا الموروثة ، وتجنب ما قد ينسيك درسك ، ويجرك إلى بعض المزالق لا سمح الله !

وإن لى من تربيتك البيتية ، وترفعك عن المباذل ، ما يؤكد لى أنك ستحقق الغاية المرجوة التى فى سبيلها تغربت ، وستعود إلينا بإذن الله حاملا الشهادة الجامعية التى ستؤمن لك مستقبلا باهراً ، وتوفر لك عيشاً زاهراً ، واذكر يا ولدى قول لقمان لابنه :

« إياك والكسل والضجر ، فإنك إذا كسلت لم تؤد حقا ، وإذا ضجرت لم تصبر على حق ! »

٨

قرأت اليوم مقالا نفسياً بقلم صديقى الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى بعنوان « بماذا أنصح الناشئة ؟ » وحرصاً منى على تزويدك بالنصائح القيمة

التى ساقها الدكتور الأهوانى للنشء الصاعد أنقل إليك المقطع التالى :

« كانت الناشئة فى العصور القديمة تعتمد على الحسب أو الثروة أو المنزلة والسلطان ، وهذه الثلاثة سند الحياة الرغدة الهانئة . أما اليوم بعد انتشار التعليم وتطلع الفرد إلى الحياة الديمقراطية ، فلم يعد للحسب أو المنزلة أو الثروة الموروثة سلطة كبيرة يستند إليها طالب العيش . ولم يبق أمامه سوى الاعتماد على النفس . والنزول إلى معترك الحياة ، والجد فى كسب المعاش . ولما كانت الظروف متغيرة . بل سريعة التغير فلا بد له أن يكون على استعداد للتكيف مع هذه الظروف . لقد ضاقت الأرض بمن عليها ، وأصبح من اللازم استغلال كل قطعة من الأرض ، وابتكار وسائل جديدة للتنمية والزراعة . حتى لا يفضى نقص الأغذية إلى كوارث ومجاعات . وخير سبيل فى هذه المرحلة هو الاعتماد على النفس ، وإعداد العدة لذلك ، وأخذ الأهبة والتوسل بالأسباب الموصلة إلى هذا الاعتماد .

ومن جملة هذه الوسائل ما يتبع الآن فى الدول الغربية من تعلم الناشئة المبادئ الأساسية العملية للعمران من نجارة وحدادة وبناء وزراعة وغير ذلك .

فأنت لن تجد شخصاً فى العالم الغربى يجهل هذه الأوليات الضرورية! »

وينهى الدكتور الأهوانى مقاله القيم بقوله :

« إن العصر الذى نعيش فيه يعد بحق عصر العلم ، ونعنى بالعلم ملاحظة الظواهر الطبيعية ملاحظة دقيقة موضوعية واقعية ، ومعرفة

القوانين العامة التى تخضع لها هذه الظواهر . وقد استطاع الإنسان أن يكشف خصائص المادة ويدرك أنها مركبة من ذرات ، ثم ينتج المادة بتركيب جديد !

ولا يستطيع أى فرد فى العصر الحاضر أن يعيش دون مسايرة ركب العلم ، ودون أن يتعلم كثيراً من المبادئ الرياضية والطبيعية التى تعد اليوم من قبيل الأوليات حتى يتمكن من استعمال الآلات والأدوات الحديثة المستخدمة فى مختلف مجالات الحياة .

فالعلم زينة للمرء ، وحلية للأمة ! »

حقًّا يا « خالد » إنها لنصائح نفيسة جديرة بالتأمل ، ولا أشك فى أنك ستحلها المحل الأرفع من نفسك !

٩

منذ زمن بعيد وأنا أرقب يا « خالد » كيف انحرف بعض طلابنا فى جامعات الشرق الأدنى عن محجة الصواب ، وكيف انغمس فريق منهم فى الحزبيات والعنتريات ... وحملوا شعارات « مستوردة » ... وكانت حصيلة الحزبيات التى اعتنقوها ونادوا بها . . وهتفوا لها . . رسوبهم فى صفوفهم وطردهم من الجامعات التى التحقوا بها !

كل ما أرجوه يا ولدى الاعتصام بحبل الله والعكوف على الدرس والابتعاد عن الحزبيات والمبادئ « المستوردة» ! ومتى تقبلت نصحى ،

وأخذت برأيي . حققت مستقبلا زاهراً بإذن الله !

وأملي أن تكون سيفي الذي لا ينبو . وسهمي الذي لا يطيش !

١٠

ليست رسالة اليوم من مقولي . بل هي من منقول عبد الله بن الحسن لابنه محمد حين أراد الاستخفاء :

« أي بني ! إني مؤد إليك حق الله في حسن تأديبك ، فأدّ إليّ حق الله في حق الاستماع !

أي بني ! كف الأذى . وارفض البذا . واستعن على الكلام بطول الفكر في المواطن التي تدعوك فيها نفسك إلى القول . فإن للقول ساعات يضر فيها خطؤه . ولا ينفع صوابه !

احذر مشورة الجاهل وإن كان ناصحاً . كما تحذر مشورة العاقل إذا كان غاشًّا ، فإنه يوشك أن يورطك بمشورته ، فيسبق إليك مكر العاقل وتوريط الجاهل ! »

واسمح لي يا ولدي بأن أجمل هذه الرسالة بعظة ساقها لقمان لابنه : « ازحم العلماء بركبتيك ، ولا تجادلهم ، ولا تجالس السفيه . ولا تخالط ذا الوجهين ألبتة ! »

١١

تحدثت إليك فى شئون شتى لتأخذ حذرك منها : والساعة يحلو لى تحذيرك من مغبة التدخين الذى لم أعرف سبيله طيلة السنوات التى عشتها ، ولم يعرفه والدى من قبلى ، وعهدى بك أنك مدرك فوائد كل شىء ومضاره ، لأنك حكيم بعيد النظر ، تزن الأمور بميزان دقيق حساس ، وتنظر إليها نظرة فاحص خبير !

ولكم سمعتك تذم التدخين ، وتشجب إقبال أبناء هذا الجيل عليه وتشفق على زملائك فى الدراسة الذين انغمسوا فيه منذ كانوا طلاباً فى الصفوف الأولية !

ومع إيمانى بقوة إرادتك ، وتصميمك على مقته ، والنفور مما يؤذى صحتك ويخرق جيبك ، علىّ أن أحذرك من رفاق السوء فى الجامعة الذين ربما يسرفون فى إغرائك بسيجارة ... تقفوها سيجارة ... تلحقها أخرى وهنا يصحّ فينا المثل العامى « أول الرقص حنجلة ! »

وكما أحذرك من التدخين أعود إلى تحذيرك من إخوان السوء الذين لا يبالون بصدورهم وجيوبهم سواء أكانت عامرة أم نظيفة !

نشرت صحف هذا الصباح النبأ التالى :

« دلت الفحوص التى قام بها الخبراء على أن التدخين يسبب مرض السرطان الرئوى ، ويترك على صدور المدمنين على التدخين طبقة من

الزفت ... تماماً كالزفت الذى تفرش به الطرقات . وإن بلعوم المدخن يشبه مدخنة سوداء كمداخن الأفران ... من جراء التدخين ! »

بعد هذا القول أرجو ألاّ تستسلم لمغريات إخوان السوء ، وابق كما عهدتك صلب الإرادة . نظيف الصدر ، صامداً على قول « كلا » لزملائك الذين لا يقدرون مصاير الأمور !

فاحذرهم ولا تستخذ لمغرياتهم فإنهم قوم أغرار جاهلون !

١٢

تعرف السبب الذى حملنى يا « خالد » على الاغتراب وأنا فى مثل هذه السن وليس « سرا » أن أقول إنه من أجلك ، وفى سبيل تسليحك بشهادة جامعية كبرى !

وإذا كنت يا ولدى قد ضحيت بالسنوات المتبقية من عمرى فى سبيلك ، ونأيت عن والدتك وشقيقاتك لأؤمن لك مستقبلا زاهراً ، فغاية ما أرجو أن تقدر هذه « التضحية » ، وتولى الدراسة الجدية كل همك ، لتؤمن الغاية النبيلة التى من أجلها قصدت الجامعة الأمريكية لتغدو رجلا نافعاً لأمتك ، ومثقفاً ينتفع الوطن بمواهبك !

وعلى أمل أن أراك كما أشتهى وأروم أذكر لك أن الحكيم الرومانى شيشرون سئل يوماً عن أعظم عوامل النجاح فقال :

« أعظمها ثلاثة : أولها المثابرة ، وثانيها المثابرة ، وثالثها المثابرة ! »

١٣

عهدى بك يا « خالد » ذواقة فى اختيار الأصدقاء ، وسبر أغوار الناس وطبائعهم ، وأملى أن يتضاعف ذوقك هذا ، فتحسن مصاحبة الأخيار ، والهرب من الأشرار ، لأن فى هذا الدستور راحة لك ، وعزاء لضميرك ، وضماناً لمستقبلك !

صدقنى يا ولدى أننى لم أملك ثروة فى حياتى تعدل رصيدى الذى أعتز به ، وهو صفوة أصدقائى الذين محضتهم ودى ، وعرفت كيف أختارهم لعوادى الأيام ، إيماناً منى بالحكمة القائلة : « الأصدقاء المثاليون هم النقد الصحيح فى بورصة الحياة ! »

أضف يا « خالد » إلى ما أسلفت رغبتى فى أن تجامل الناس وتصانعهم فى الكثير من الأمور ، وحسبى أن أنهى رسالتى إليك بالحديث الشريف القائل : « رأس العقل ، بعد الإيمان بالله ، التودّد إلى الناس ! »

١٤

وقفت أمس أمام نبأ طريف نشرته مجلة « العربى » الكويتية ، والساعة أود أن أطلعك عليه لتشاركنى روعة المغزى السامى ، ولترى

أن الصرامة فى بعض الأحيان تعطى أكلا شهيا . وتنشئ الصبى تنشئة راسخة وتخلق منه رجلا صالحاً .

جلس الأمير جورج ولى عهد بريطانيا الأسبق (الملك جورج السادس فيما بعد) وكان طفلا صغيراً لا يتجاوز العام التاسع من عمره وكتب رسالة إلى أمه الملكة مارى قال فيها :

« لقد رأيت بالأمس يا أمى سيارة صغيرة ثمنها خمسة جنيهات ، وأريد أن أشتريها . لذا أرجوك أن تعطينى هذا المبلغ ! »

قرأت الملكة الرسالة فجلست ترد عليها برسالة أخرى قالت فيها :

« ابنى جورج !

أنت ولد متلاف — فلديك غرفة كاملة مكتظة بالألعاب ، يجب أن تعرف قيمة المال ، فقد تصبح ملكاً عظيما فى يوم من الأيام ، وأنا لا أريد أن أراك ملكاً مسرفاً متلافاً ! » .

أقف عند هذا الحد يا « خالد » لإيمانى بأنك شاب موزون فى تفكيرك وأعمالك ، لا تقدم على اجتراح عمل لا تراه ضروريا ، وهذه الظاهرة عرفتها فيك منذ كنت طفلا ، وقد سلكت طريق الواقع والحكمة والاتزان .

١٥

يعزو أكثر الناس سوء حظهم إلى قسوة الدهر وتجهم الأيام فى وجوههم . لكنى أخالفهم فيما ذهبوا إليه . إذ لو أنهم جدوا فى أعمالهم . وصفوا نياتهم لحققوا الغاية ، وركزوا الراية !

ولنأخذ الفراشة والنملة مثلاً لنجد الفرق بينهما واسعاً ، فالأولى جهدها مشتت . والثانية جهدها مركز !

والأديب الأصيل عبد الله بن المقفع (٧٢٤ — ٧٥٩) نصحنا بقوله :

« إذا تراكمت عليك الأعمال فلا تلتمس الروح فى مدافعتها بالروغان منها . فإنه لا راحة لك إلا فى إصدارها . وإن الصبر عليها يخففها عنك . والضجر منها يراكمها عليك ! »

واسمع يا « خالد » قصص هؤلاء المجدين المثابرين :

- أبو الفرج الأصبهانى ، أمضى خمسين سنة فى تصنيف كتابه « الأغانى » .
- ابن بطوطة نشر كتابه « تحفة النظار فى غرائب الأمصار » بعد أربعة وعشرين عاماً قضاها مطوفاً فى أقطار شتى .
- الفيلسوف ابن رشد قضى حياته فى القراءة والبحث والتحقيق ولم يكف عن هذه الهواية إلا فى ليلتين : ليلة زفافه وليلة وفاته .
- القاص الأمريكى ناثينال هوثورن أمضى اثنى عشر عاماً فى تصنيف

مجموعة قصصه الأولى .

- المؤرخ الإنجليزى إدوارد جيبون أمضى عشرين عاماً فى وضع كتابه « سقوط الدولة الرومانية » .
- نوواه وبستر العالم اللغوى الأمريكى وصاحب المعجم الشهير المعروف باسمه أمضى ستة وثلاثين عاماً فى جمع الكلمات والبحث عن أصولها ومشتقاتها حتى فرغ من معجمه .
- المخترع الأسكتلندى جيمس واط قضى ثلاثين عاماً فى تطوير آلته البخارية .
- أبوك كاتب هذه السطور أمضى ثلاث سنوات ونصف السنة فى تصنيف موسوعته المهجرية « الناطقون بالضاد فى أمير كا الجنوبية » وسنة فى نقل فصولها بخط يده . وثلاثة أشهر فى ترتيب فهارسها الأبجدية .

ولولا تصميم هؤلاء العصاميين ومثابرتهم لظلت هذه الآثار التى ابتدعوها نسياً منسيّا .

وأملى بك يا ولدى أن تجد وتثابر وتتسلق جبال المصاعب لتبلغ شأواً بعيداً فى دنيا المجد ومعارج الكمال بإذن الله .

١٦

كثير من مدارس هذا العصر تتنكر للدين . ولا تدعو إلى الاعتصام بحبل الله . زعماً من القائمين على شئونها وتصريف أمورها أن الدين شيء رث قديم لا ينسجم ومدنية العصر الحاضر !

وكل ما أرجوه يا بنى أن تؤمن من قرارة نفسك بوجود إله واحد خلق السموات والأرض . وأقام لهذا الكون العجيب نظاماً دقيقاً كعقارب الساعة . وأملى يا « خالد » أن تصلى لله قبل أن تلوذ بمخدعك . وعندما تستيقظ . وتسأله الرحمة بعباده . وتردد مع (تاغور) قوله :

يارب !

علمنى أن أحب الناس كما أحبّ نفسى . علمنى أن أحاسب نفسى كما أحاسب الناس . وعلمنى أن التسامح هو أكبر مراتب القوة ، وأن حب الانتقام هو أدل مظاهر الضعف !

يا رب !

لا تجعلنى جزاراً يذبح الخراف . ولا شاة يذبحها الجزارون . وإذا أسأت إلى الناس فأعطنى شجاعة الاعتذار . وإذا أساء الناس إلى فأعطنى شجاعة العفو !

يارب !

ساعدنى على أن أقول كلمة الحق فى وجه الأقوياء . وألا أقول

الباطل لأكسب تصفيق الضعفاء . وأن أرى الوجه الآخر من الصورة .
ولا تتركنى أتهم خصومى بأنهم خونة . لأنهم اختلفوا معى فى الرأى !
وإذا أعطيتنى مالا فلا تأخذ سعادتى . وإذا أعطيتنى قوة فلا تأخذ عقلى . وإذا أعطيتنى تواضعاً فلا تأخذ اعتزازى بكرامتى !
يارب !
لا تدعنى أصب بالغرور إذا نجحت . ولا باليأس إذا أخفقت بل ذكرنى دائماً بأن الإخفاق هو التجربة التى تسبق النجاح !
وإذا نسيتك يارب فلا تنسنى من عفوك وعطفك وحلمك . فأنت العظيم القهار القادر على كل شىء ! »
ولا تنس أن تردد قول السيد المسيح وتعمل به :
« ... وأما أنت فمتى صليت فادخل إلى مخدعك . وأغلق بابك . وصل إلى أبيك الذى فى الخفاء ، فأبوك الذى فى الخفاء يجازيك علانية ؛ وحينما تصلون لا تكرروا الكلام باطلا كالأمم . فإنهم يظنون أنه بكثرة الكلام يستجاب لهم . فلا تتشبهوا بهم . لأن أباكم السماوى يعرف ما تحتاجون إليه قبل أن تسألوه ! »

١٧

ألمح فى هذا العصر صراعاً عنيفاً بين العلم والدين ، والإنسان هو الباعث على هذا الصراع !

فطوراً يجذب العلم الإنسان إلى رحابه . فيكفر بالدين . وطوراً يجذبه الدين إلى محرابه . فيقبل عليه ويتفاعل معه !

ومادمنا فى الحديث عن هذا الصراع المتواصل فلنلق نظرة أوسع شمولا !

يقبل الإنسان على العلم فيبتدع الأفانين . فإذا استغل هذه المخترعات للخير كانت خيراً على الإنسانية . وإذا وجهها نحو الشر كانت وبالا على العالم أجمع ! فالذرة مثلا تحمل فى طياتها البركات متى استغلها الإنسان لخير الإنسانية . وتحمل فى طياتها الدمار متى شاء الإنسان تدمير الإنسانية !

والآليات فيها العمران والبناء متى شاء الإنسان العمران والبناء للبشرية . وفيها الدمار والشقاء متى شاء الإنسان دمار البشرية !

وفى يقينى أن هذا الصراع الشديد لا ينهيه إلا الدين . فهو يستثير فى الإنسان ضميره . ويزجره عن اجتراح الجرائم . فيقف حائلا دون امتداد الشر !

ومن هنا تدرك يا « خالد » أن للدين أثراً بعيداً فى النفوس . فاعتصم بحبله ، واذكر ربك أنى قصدت ويممت !

١٨

تعرف أكثر من غيرك مدى إعجابى وتقديرى لكل عصامى أيًّا كان لونه ودينه وعنصره ، وتذكر أحاديثى إليك عن كل عصامىّ درج على بسيطنا العربى ، أو وقفت على سيرته فى الكتب والصحف .

واليوم وقفت مفاخراً مباهياً ببدوى أمى جاء بالعجائب . وحقق المعجزات فى مهبط الوحى !

ويحلو لى الساعة أن تقاسمنى اللذة فى قصة كفاح هذا الأمى السعودى . ومدى النجاح الذى حققه . ففيها النكهة .. وفيها الطرافة ... وفيها العظة :

فى عام ١٩٣٨ عرف الناس فى جدة بالسعودية عامل بناء بسيطاً اسمه محمد بن لادن . لا يقرأ ولا يكتب . يتقاضى أجراً يوميا مقداره ريال واحد . ثم عرفوه مقاولا صغيراً للأعمال الصغيرة . وسرعان ما أصبح مقاولا للأعمال الثانوية للطريق الذى شقه بين جدة ومكة . وحفر خنادق المواسير لمد المياه من وادى فاطمة إلى جدة . ثم عين هذا المعمارى البسيط مقاولا لدى شركة « أرامكو » فى الظهران شرق السعودية فكان مثالا للوفاء بالتزاماته . والصدق فى معاملاته !

وفى الظهران تعرف عليه الشيخ عبد الله السليمان (وزير مالية السعودية آنذاك) فأعجب به . وكلفه العمل فى بناء القصر الملكى بمدينة الخرج . قرب الرياض . ثم بناء القصر الملكى فى جدة . وفى هذه الأثناء تعرف الملك عبد العزيز آل سعود على هذا المعلم البسيط . فأعجب بنشاطه واستقامته . وبذكائه المفرط وتقديره لمسئولياته ؛ وهنا سطع نجمه . وذاع صيته . وأصبح موضع تقدير المسئولين فى السعودية .

وثمة شخص كبير . هو الملك فيصل آل سعود . شجع هذا العصامى

على استكمال أجهزته الفنية وآلياته وتنظيمها تنظيماً علمياً دقيقاً .

ولما استكمل ابن لادن كل هذه العناصر عهد إليه الملك فيصل في المشاريع الكبيرة والصغيرة . وكلفته السلطات السعودية القيام بالأعمال الهامة . كبناء الحرم النبوى الشريف في المدينة المنورة . والحرم المكى الشريف . وقبة الصخرة المشرفة بالمسجد الأقصى في بيت المقدس . وطريق جدة — المدينة المنورة . وطريق مكة المكرمة الطائف . ولم يقتصر في أعماله على هذه المشاريع العظيمة بل تجاوزها إلى إنشاء المطارات والمساجد والمدارس والمنشآت الهامة !

قلت لك يا « خالد » : إن ابن لادن كان أمياً لا يعرف القراءة ولا الكتابة إلا أنه كان متفتح الذهن . عميق التفكير . واسع الاطلاع . يتحدث في أهم الموضوعات السياسية والاقتصادية . وله آراء حكيمة . يعجز المهندسون وأهل الفن عن مناقشته في اختصاصاتهم !

وفي ٧ آب (أغسطس) ١٩٦٧ توفي هذا العصامي البطل في حادث سقوط طائرته الخاصة . مخلفاً وراءه مؤسسة كبيرة للأعمال الإنشائية . وغدت معداتها أكبر معدات يملكها فرد واحد في العالم . وثالثة شركة للطرق في العالم . وقد بناها هذا العصامي الأمي بعزمه وجده ورجولته !

هل سمعت قصة أروع من قصة هذا البدوى الأمي ؟ ! لقد صدق الكاتب الإنكليزى القدير « هيكتور بوليتو » في مقاله الرائع . سر الصحراء : « إن لصحراء العرب سراً قدسياً غريباً . تنفح به فئة من رجالها اللوامع . ونجومها السواطع ! »

١٩

منذ أصبحت واعياً يا« خالد» وأنا أسوق إليك قصص العصاميين الواحدة تلو الأخرى . وأروى لك أدوار البطولة التى اضطلعوا بها ، حتى صنعوا المعجزات وأحالوا فقرهم ثراء ، وضيقهم رخاء . وظلامهم ضياء !

واليوم يخلو لى أن أطالعك بوجه إغريقى كان فى العشرينات عاملا معدماً . لكنه ارتفع من التراب إلى السحاب ، وأنزل الأرملة الجميلة جاكلين كندى من عليائها واقترن بها !

وإليك ملامحه فى كلمات :

- ولد أوناسيس هذا عام ١٩٠٦ . وهاجر إلى بونس آيرس عام ١٩٢٣ بثقافة بسيطة .
- حمل معه إلى الأرجنتين ستين دولاراً وعلى الرغم من أنه لم يكن يتكلم الإسبانية حصل على وظيفة عامل تليفون فى الليل ، وتعاطى فى النهار بيع التبغ !
- استورد هذا المغترب اليونانى تبغاً من اليونان قيمته نحو مليونى دولار ، وقد ربح منها ١٠٠ ألف دولار ، وأصبح قنصلا لبلاده فى بونس آيرنس .
- شجعته الثروة التى جمعها فى الأرجنتين على صنع الملابس الصوفية والجلود المدبوغة .

● عندما بلغ الخامسة والعشرين من عمره كان قد جمع أول مليون دولار : وهو المليون الصعب الذى جر وراءه ملايين أخرى . وأصبح يجيد هذا العامل سبع لغات .

واليوم يملك العريس أو ناسيس (والعافية لك) :

(ا) جزيرة سكوربيوس الخضراء . وقد اشتراها عام ١٩٥٣ بمبلغ ١٣٥ ألف جنيه إسترلينى .

(ب) كازينو مونت كارلو الذى اشتراه فى عام ١٩٥٠ ، إلا أنه اختلف مع الأمير رينيه فسحب الكثير من أمواله من إمارة مونا كو على الريفييرا .

(ح) شركة الخطوط الجوية الأولمبية « التى أسسها عام ١٩٥٧ ، وأنفق عليها أكثر من ٥٠ مليون دولار .

(د) يختاً خاصًّا به يعتبر من أفخم اليخوت فى العالم .

(هـ) ١٠٠ مليون جنيه إسترلينى . وهو اليوم واحد من أغنى أغنياء العالم .

(و) أسطولا من ناقلات الزيت .

بعد هذه اللمحات ألا يستحق هذا البطل الحلاحل الزواج بالأمريكية الأولى المشهورة بجمالها ورقة أنوثتها ؟

obeikandl.com

٢٠

فى رسالتين سابقتين حدثتك عن عصامى من السعودية . وعن آخر من اليونان . ضرب كل منهما رقماً قياسياً فى دنيا الأعمال !

والساعة أتحدث إليك عن عصامى فلسطينى عملاق صنع العجائب وأتى « بما لم تستطعه الأوائل ! »

أود أن أسمى لك هذا العصامى الجبار الذى أنبته ريف فلسطين . لكنه يؤثر الصمت فى أعماله . ويمقت تسليط الأضواء عليه . ولكن لى من ذكائك وفطنتك ما يحسر اللثام عن هذا البطل الحمام !

- خلاصاً من تعسف الشيخ « خطيب القرية » وهرباً من جور عصاه . هجر صاحبنا « الكتاب » وعمل « فاعلا » فى بنايات القدس .
- فى الأسبوع الأول من عمله كان أجره اليومى قرشاً ونصف القرش (بالعملة التركية) .

وفى الأسبوع الثانى بلغ أجره اليومى خمسة قروش .

وفى الأسبوع الثالث تقاضى أجراً يوميا مقداره عشرة قروش .

- وليوفر هذا الصبى الطموح عيشاً كريماً لوالديه وأهله اشترى جملا (وله من العمر اثنا عشر عاماً) وشرع ينقل الحجارة من مقالع قريته إلى عمارات القدس . وسرعان ما حذق حرفة الدقاقة « تحت الحجارة » لأنها أكثر دخلا من نقل الحجارة .

- في عام ١٩١١ لقي صاحبنا مهاجراً من رام الله عائداً من الولايات المتحدة لزيارة ذويه. واستطلعه أنباء الأرباح التي يجنيها المغترب ، فزيّن له الهجرة وأغراه بالسفر بلا إبطاء .
- بعد أيام كان صاحبنا على ظهر سفينة حملته إلى مرسيليا . ومنها امتطى سفينة ثانية أقلته إلى نيويورك .
- بعد مشقة عاناها صاحبنا بلغ نيويورك . وعمل فيها بائعاً جائلا ، وفي الليل عكف على تعلم القراءة والكتابة والحساب باللغتين العربية والإنكليزية .
- بعد مرور ثلاث سنوات أسفر جدّه المتواصل عن جمع عشرين ألف دولار . فأسس محلا تجاريًّا في نيويورك . واستطاع أن يسجل حساباته وديونه بخط يده .
- نظراً لاستقامته وطيب سمعته لمع نجمه بين أفراد الجالية العربية وأقدم على تأسيس مصنع للحرير في شارع « فيفث أفنيو » ، وأخذ يصنع ملابس للسيدات .
- ظل هذا الرجل الدءوب الشريف يجاهد في مهجره جهاد الأبطال . وفي عام ١٩٢٩ عاد إلى فلسطين وأسس « البنك العربي » في القدس برأس مال قدره ثلاثون ألف جنيه . وخلال ربع قرن نمت هذه المؤسسة المالية وترعرعت بجهد هذا المارد الفلسطيني . وغدت منارة مشعة يعتز بها كل عربي . وأصبح رأس مالها الآن ١٦ مليون جنيه . وبلغت فروعها في المشرق والمغرب ٦٥ فرعاً .

إخالك يا « خالد » قد عرفت اسم هذا العصامى الفذ الذى لا أسميه نزولا عند رغبته !

كتب صحفى أمريكى مقالا عن هذا الجبار العربى أشاد فيه بعصاميته وألمعيته ، وختمه بهذه العبارة البليغة :

«From Astone Gutter To Presibent OF The Biggest Banking Insitu Tion IN The Middle East»

وترجمتها :

« من حجّار إلى رئيس أكبر مؤسسة مصرفية فى الشرق الأوسط ! »

ألا تتيه يا ولدى بهذا العصامى البطل ؟

ألا يصح فيه قول الشاعر :

يعدّ بألف من زمان رجاله على أنه فى الألمعية واحد !

بعد هذا الطواف الشذىّ الفواح إخالك ترفع القبعة تحية لهذا العربى العملاق !

وأتصورك تحنى الهامة إعجاباً بعصامى أنبته ريف فلسطين !

٢١

سألتنى ذات ليلة : « كيف تعلّم أبوك ؟ »

فذكرت لك بإيجاز الطريقة التى تعلم بها ، لكنى الآن — وقد أصبحت جامعيًّا — علىّ أن أروى لك قصة تعليم جدك كاملة :

ذكرت والدتى أن جدّى لأبى كان معدماً فقيراً . فشبّ والدى فى بيت سياجه الفقر . وراح يعاون أباه على فلاحة الأرض وزرعها ؛ وبشق النفس كان الاثنان يجمعان مؤونة الدار من الحنطة وبذار الموسم من الشعير والقمح !

وحزّ فى نفس والدى . وهو العصامى الطموح . أن يظل بلا علم .. وقد ربط والده مستقبله ومصيره بمصير الأرض التى يملكها . فاتفق مع قريب لنا كان معلماً فى المدرسة الأرثوذكسية بمدينة الكرم على أن يعلّمه القراءة والكتابة والحساب بعد فراغه من حرث الأرض وبذرها . فكان والدى كلما أنهى مهمته الشاقة عاد إلى الدار وربط الثور الذى يملكه إلى مذوده ، وسارع إلى قريبنا المعلم . ليقرأ عليه الأبجدية والمزامير والحساب .. ولكن أنّى له القلم والقرطاس وهو الشاب المعدم ! فاقترح على المعلم كتابة دروسه على بلاط الكنيسة ذى اللون الأسود . فسرّ المعلم بهذا الاقتراح . وبارك الفكرة . وانبرى يعلّم والدى القراءة والكتابة والحساب على بلاط الكنيسة . وكان والدى كلما فرغ من دروسه ؛ يعمد إلى مسح الكلمات والأرقام بخرقة مبللة . وهكذا دواليك !

وظل والدى يجمع بين الأرض والدراسة إلى أن أتقن الأعمال الأربعة ، وهى الجمع والطرح والضرب والقسمة . وهنا خطر له نقل البضائع على حمارين يملكهما بين غور المزرع والكرك وبالعكس .

وبعد أن أتيح له جمع بعض المال بادر إلى تأسيس حانوت صغير بمشاركة صديق له . وظل يجمع بين التجارة والزراعة حتى جمع مالا

يكفى لتأسيس محل تجارى استقل به . ونظراً لأمانته واستقامته وطيب أحدوثته كتب الله لجدك التوفيق . حتى إذا أطل عام ١٩١١ اختاره متصرف لواء الكرك التركى « شاكر بك » رئساً لبلدية الكرك . فكان أول رئيس لبلدية مدينة الكرك !

وظل نجم جدك فى صعود حتى فارق الدنيا حميد السيرة . طيب السريرة !

هل عرفت الآن يا « خالد » كيف تعلم والدى وأثرى وصار علماً يشار إليه بالبنان ؟

أو تدرى كيف تم له ذلك !

بالمثابرة والإصرار والإرادة !

٢٢

ولدى خالد !

تفيض رسالتى إليك بقصة حياتى . واعذرنى إذا جاءت مسهبة لأن بعض إخوانى . وفى طليعتهم الأستاذان سامى الكيالى صاحب مجلة « الحديث » وعبد الله حلاق صاحب مجلة « الضاد » . يصرون على هذا الإسهاب . إيمانا منهم بأن فيه دروساً وعظات لجيلك الصاعد !

وهل نكتب يا « خالد » غير قصتنا حين نكتب قصص الآخرين ، كما يقول المرحوم مارون عبود ؟ !

يقع الباحث فى الأدب العربى قديماً على ترجمات ذاتية لأعلام بارزين فى مجالات الأدب والفكر والتاريخ . وفى طليعة هؤلاء الأعلام الذين دوّنوا سيرهم بأقلامهم : ابن سينا والجاحظ وابن حزم والسخاوى والسيوطى وابن خلدون وأسامة بن منقذ الذين جلوا مراحل حياتهم وتعليمهم ودراستهم وأسماء أساتذتهم الذين تأثروا بهم فى ميولهم واتجاهاتهم الفكرية بصورة قلمية رائعة !

كما يقع الباحث فى أدبنا المعاصر على أدباء دونوا سيرهم واعترافاتهم بأقلامهم . ورووا فيها ما واجهوا منذ نشأتهم الأولى إلى أن أمسكوا بتلابيب الشيخوخة . وفى طليعتهم معلم الجيل أحمد لطفى السيد . والمفكر العملاق عباس محمود العقاد . والأديب الراحل الدكتور أحمد أمين . وعميد الأدب العربى الدكتور طه حسين !

والآن اسمح لى بأن أصوّر لك مراحل حياتى وما بلوت من شقاء وقاسيت من شظف عيش فى العشرينات من هذا القرن !

فذا الكون جامعة الجامعات وذا الدهر أستاذها المعتبر (١) !

أول الشوط :

توفى والدى ولى من العمر عشر سنوات . وقبل أن يلحق بربه أوصى شقيقيه بأن ينفقا سهمه من الثروة على تعلمى الطب . لكن شقيقيه راحا يتنافسان فى تبذير الثروة التى اشتهر بها بيتنا !

---

(١) من شعر إلياس فرحات .

وما اليتم إلا غربة ومهانة وأى قريب لليتيم قريب ؟
يرى كل أم بابنها مستعزة وهيهات لايحنو عليه حبيب!
إذا جاءه عيد من الحول عاده من الوجد دمع هاطل ووجيب
كأن سرور الناس بالعيد قسوة عليه تريق الدمع وهوصبيب
عزاءك . لا يلمم بك الضيم . إننا « يتامى » . ولكن الشقاء ضروب
فهذا « يتيم » ثاكل صفو عيشه وذاك من الصحب الكرام سليب(١)

وأوسعنى العمان . كما أوسعا أمى وشقيقتى . جوراً وتعسفاً واضطهاداً . وحشرا ثلاثتنا فى غرفة من الدار الكبرى . وقالا لنا بلهجة المتغطرس المتكبر : « خذوا علماً بأننا فسخنا الشركة القائمة بيننا وبين عميدكم المتوفى منذ هذه اللحظة ! »

قبعنا فى الغرفة المهجورة أذلاء صاغرين . وتزودنا بالضئيل . . الضئيل . . من الفراش والدقيق . . وعشنا بؤساء . وبلونا الشقاء . وبعدما أنهيت دراستى الابتدائية حالت والدتى — رحمها الله — دون متابعتى الدراسة لحاجتها وشقيقتى لمن يمدّ لهما يد العون . ويدفع عنهما غائلة الجوع !

وبالرغم من توسلاتى ودموعى . أمعنت الوالدة فى عنادها . ورحت من توى أفتش عن عمل حر فى حانوت تاجر دمشقى . لكن الأجرة التى عرضها كانت تافهة للغاية !

لقد لفظتنى رحمة الله يافعاً فصرت كأنى فى الثمانين من عمرى(٢)

---

(١) من شعر عبد الرحمن شكرى. (٢) من شعر عبد الرحمن شكرى .

وحاولت منى أضم صبراً فلم أزل أدافعه حتى أبحت له صدرى!
وإنى لأدرى أن الموت راحة وأجتنبه حتى كأنى لا أدرى
ولولا تقى لا يملك اليأس صرفه لأوردنى يأسى على المسلك الوعر!

الصبى التاجر :

فى ظهيرة ذلك اليوم عدت إلى والدتى لأروى لها ما واجهت من إخفاق . لكنها قابلت جزعى بابتسامة . وأصرت على تأسيس حانوت صغير فى الشارع العام . فأذعنت لإرادتها . واشترطت عليها استئناف دراستى الإعدادية والثانوية حتى كتب الله لى رزقاً يكفيها وشقيقتى . ويؤمن نفقات دراستى إلى أن أخرج للحياة مسلحاً بشهادة علمية تمكننى من إيجاد عمل مثمر وشريف !

باركت أمى هذا الشرط . فرحت من توّى أعدّ العدة لتأسيس متجر صغير . وقبل شروعى فى العمل طرأ أمران هامان لابد من عرضهما :

الأول : زار مدينة الكرك — مسقط رأسى — الجائمة على سيف الصحراء : عام ١٩٢٤ . بطريرك اللاتين فى فلسطين والأردن المونسنيور برلا سينا : فقوبل باستقبال حافل اشترك فيه الأهلون والمسؤولون . ودلف الناس إلى الدير للسلام على الضيف . فخطر لى أن أزور غبطته وأكاشفه بالمأساة التى خلفها موت والدى ، وأسأله أن يسهل لى دراسة مجانية فى كلية كرديتال فرّارى بالقدس !

تركت الوالدة والشقيقة لا ألوى على شىء . وقصدت دير اللاتين خفيفاً طائراً . حالماً بالمستقبل الزاهر الذى ينتظرنى . . . وبكل جرأة

دخلت القاعة الكبرى على الضيف مهنئاً بسلامة الوصول . ولبثت ضاغطاً على يده لأقول له :

« إننى يتيم الأب . فقير الحال . وأرغب فى أن أتعلم . لكن قسوة الحياة وظلامة المجتمع يحولان دون تحقيق هذا الهدف ! »

قال غبطته : « وماذا تريد أن أفعل من أجلك ؟ »

ـ أدخلنى كلية الكاردينال فرارى بالقدس مجاناً ! »

ـ حبًّا وكرامة !

ولكن سرعان ماأقحم معلم الدير أنفه فى الموضوع وقال للبطريرك :

ـ « سيدنا . . . لاتقبله . . . إنه ليس من أبناء طائفتنا . . . . إنه أرثوذكسى ! »

وهنا سحب غبطته يده من يد صبى مثلى . بدعوى مصافحة الزوار . فتولانى جزع هادم . وعدت إلى الغرفة أجرّ أذيال الخيبة . وأبكى أمنية كادت أن تتحقق . وأخفيت سر المأساة عن الأم الحزينة !

الثانى : وصل إلى الكرك قادماً من عمان تاجر من لبنان اسمه إبراهيم القاضى . وسأل تاجراً قريباً لى أن يدله على صبى أمين . ليشترى له بيضاً ودجاجاً من القرى المجاورة . فدله التاجر علىّ . وشهد بأمانتى . وأكد له أننى أهل لهذه « السفارة » !

نقدنى التاجر اللبنانى بعض المال . وامتطيت من توّى مهراً حروناً حملنى إلى أقرب قرية . وبعد أن أنجزت مهمتى عدت على ظهر مهرى وصندوق البيض أمامى . وأفراخ الدجاج مدلاة خلف السرج

كعناقيد العنب !

وما إن بلغت مشارف المدينة حتى دهمتنى سيارة ركاب بصفارتها الصارخة . فأجعل المهر . وأخذ يدور بى دورات عنيفة . فضرحنى أرضاً وانطلق إلى دار صاحبه الذى أدرك من توه سر مأساتى . . . فعرّج على والدتى وأنبأها بالواقع . وخف وإياها إلى الموضع الذى خضبت دمائى أرضه . فألفيانى مهشم الرأس . دامى الوجه واليدين . فاستوقفا أول سيارة قادمة من عمان . وعادا بى إلى الغرفة الكئيبة الجرداء . وهناك دعت والدتى الطبيب . فضمد جراحى : وراحت المسكينة تبكى بكاء مرًّا . وتشجعنى بكلماتها العذاب على تحمل الصدمة القاسية !

حلم يتحقق :

بعد أن شفيت جراحى . استأنفت الجهد لتأسيس الحانوت واتصلت بتاجر أمين عرف والدى فى ثرائه الواسع وطيب أحدوثته . فزودنى بالسلع . وواصلت العمل سبع سنوات . عشت خلالها عيشة الزهد والتقشف . وكافحت كفاحاً متواصلا فى سبيل اللقمة الحمراء . . . والمستقبل الزاهر الذى ينتظرنى . . . وعلى صوت المؤذن كنت أستيقظ مع كل فجر . لأعد الشاى والفلافل للعمال المبكرين لأعمالهم خارج المدينة . وأظل فى حركة مستمرة حتى يأوى الناس إلى مخادعهم ، فأغلق باب متجرى المتواضع وأستسلم للنوم !

وفى ساعات الفراغ دأبت على مراجعه دروس المرحلة الإعدادية ،

وكلما واجهت صعوبة فى حل المعادلات الرياضية والكيمائية والفيزيائية فزعت إلى معلم المادة ليرشدنى إلى الحل الصحيح !

وليسر الله أمرى . ويحقق أمانيي . ربط بينى وبين أساتذة المدرسة الأميرية برباط من الصداقة . فأقبلوا على شراء حاجاتهم المنزلية من حانوتى. وعندما تناهى إليهم نبأ عكوفى على الدرس ، وتصميمى على تقديم امتحان الدراسة الإعدادية ، أكبروا عملى . واعتنوا بأمرى ، وراحوا يبسطون فى وجهى كل صعب . وعند بدء السنة الدراسية تقدمت إلى الامتحان ونجحت بتفوق . وبعت الحانوت سراً ورحت أستوفى الثمن أقساطاً شهرية !

سعياً وراء الدراسة الثانوية :

وطمعاً بتحسين لغتى الإنكليزية قصدت بيت المقدس لألتحق بمدرسة صهيون الإنكليزية . وبعد أن بلغتها . وقابلت المسئولين فيها . وجدت أن المال الذى أحمله لايسد نفقات عامين دراسيين . وبينما كنت فى حيرة وذهول من أمرى . دخل الفندق الذى أنزله مواطنى الأديب الكبير النفس . الندى الكف . عبد المهدى (باشا) الشمايلة . أحد بناة المملكة الأردنية . وبعد أن وقف على جلية واقعى . اقترح على العودة معه إلى مدينة « إربد » . وأكد لى أن فى وسعى الالتحاق بمدرستها الثانوية والحصول على الشهادة بالمال الذى ادخرته . فاستحسنت الاقتراح وعدت ومواطنى النبيل إلى « إربد » . وكان محافظها . ولبثت فى ضيافته شهراً مغموراً بعطفه وكرمه !

سعياً وراء الدراسة الجامعية :

بعد أن سلخت فى ثانوية إربد سنتين ، عدت إلى مسقط رأسى ، وقدمت الشهادة للأ م العالية . ورحت أقنعها ببيع قطعة الأرض التى آلت إلينا من الميراث الطائل . . . لأنفق ثمنها على تعلم الحقوق بالجامعة السورية فى دمشق . لكن أمى . يرحمها الله . رفضت اقتراحى . وقالت لى بحدّة وانفعال : « إذا كنت عصاميًّا حقًّا ، فشمر عن ساعد جدّك وابن مستقبلك بنفسك . وحاذر أن تمسّ أرضاً لم تملكها بعرق جبينك ! »

تركت هذه العبارة القاسية أثراً عميقاً فى نفسى . فصرفت النظر عن الجامعة السورية ، وعينت معلماً فى وزارة التربية والتعليم الأردنية ، وعكفت على المطالعة بشغف ولذة . وخرجت من جهادى الطويل بأكثر من ستة عشر كتاباً قدمتها بتوقيعى المستعار « البدوى الملثم » إلى الخزانة العربية !

إن أباك يا « خالد » لا يضيع جزءاً من وقته فى غير طائل . ومتعتى هى القراءة الموصولة التى تؤدى بطبيعة الحال إلى الكتابة الموصولة ، وروافد الثقافة متعددة . وينابيع المعرفة كثيرة . فأنا أرافق منذ عهد بعيد أمثال هوميروس وشكسبير وموليير والمعرى ودانتى وهوغو وموسيه وبايرون وشيلى وغيرهم .

توقيعي المستعار :

حملت مقالاتي وكتبي التي صدرت توقيع « البدوي الملثم » . وراح العاملون في حقل أدبنا المعاصر يتساءلون : « من يكون صاحب هذا التوقيع المستعار ؟ » وبعد أن حسروا اللثام عن صاحبه أخذوا يمطرونني بتساؤلهم : « كيف وقعت على هذا التوقيع الشعري المستعار ؟ » وردًّا على تساؤلهم أقول : تعود بي الذاكرة إلى عام ١٩٢٦ . العام الذي شرعت أنشر فيه نفثات قلمي في صحف سورية وفلسطين بتواقيع مستعارة . ظلت حائرة . . . قلقة . . . في نفسي . وأذكر منها : « أبو بارودة » و « حماد البدوي » و « أبو نظارات » و « نواف » و « فتى مؤاب » و « فتى البادية » !

وذات يوم كنت أتنزه بمفردي على ضريق السيل في مسقط رأسي . فلمحت « بدويًّا ملثماً » على ظهر ناقة تسير به خبباً . . . والمحجن في يده . فطربت لهذا المنظر البدوي الرائع . وعزمت من توّي على أن يكون « البدوي الملثم » هو توقيعي المستعار !

إلى الجامعة السورية أيضاً :

وتقديراً من رجل الدولة المغفور له إبراهيم (باشا) هاشم رئيس وزراء الأردن الأسبق : نقلت من سلك التعليم إلى رئاسة الوزراء . وبعد فترة عينت سكرتيراً معاراً للمجلس التشريعي . وبعد زواجي تركت العمل الحكومي . وتمت دمشق للالتحاق بكلية

الحقوق . ولتأخرى بضعة أيام عن موعد التسجيل رفض مسجل الجامعة السورية قبولى طالباً فى كلية الحقوق . وهنا لم أر بداً من العودة إلى القدس . وهناك التحقت بقلم الترجمة التابع للسكرتيرية العامة فى عهد الانتداب .

رحلتى إلى أمريكا الجنوبية :

وبعد وقوع النكبة الفلسطينية الأولى . وخروج عرب فلسطين من وطنهم المغصوب . عدت إلى الأردن ، وعينت موظفاً فى وزارة المالية . وبعد عام طلقت الوظيفة وقمت برحلة علمية إلى أشهر جمهوريات أمريكا الجنوبية لدراسة قصة الهجرة العربية . وبعد إقامة عامين ونصف العام فى تلك الربوع عدت إلى الأردن وصنفت موسوعة كبرى أسميتها « الناطقون بالضاد فى أميركا الجنوبية » . خرجت فى مجلدين ضخمين من القطع الكبير .

ولعل فى قصة نجاحى مايؤكد لك ولأمثالك من أبنائنا النابهين أن لله جنوداً إذا أرادوا أراد !

٢٣

كلما طالعت نبأ هامًّا أحببت نقله إليك لتقف على فحواه وتأخذ بالعبرة منه . وهدفى من هذا كله إنذار الجيل الصاعد . وقرع ناقوس الخطر لمن يؤثرون العاطفة على العقل !

جاء فى إحدى برقيات « رويتر » من لندن مانصه :

« حذر تقرير حكومى جماهير المدخنين القلقين من سرطان الرئة ، من أنه ليس هناك شيء " اسمه « سيجارة آمنة ! " »

وذكر السير جورج غودبر كبير أطباء وزارة الصحة البريطانية : « أن عدد الوفيات الناجمة عن سرطان الرئة فى بريطانية وويلز فى سنة ١٩٦٧ ارتفع إلى ٢٨٣٥٢ شخصاً . أى بزيادة ١٢٢٧ شخصاً . وبلغ عدد جميع الوفيات الناتجة لمرض السرطان ١١٠٠٧٢ وفاة ! »

وأضاف السير غود بريقول :

« إن معظم الوفيات الناتجة عن سرطان الرئة كان سببها التدخين . وإذا أردنا السلامة من هذا الوباء الخبيث فعلينا محاربته والإقلاع عنه! ».

هذا ما أبرزته « رويتر » فى إحدى برقياتها . لعل فى هذه النبأ ماينبه الشبان إلى هذا الوباء الفتاك ويحملهم على محاربته والتغلب عليه !

٢٤

ولدى الحبيب !

مهما صورت لك مشاعر حبى . ووصفت لك خلجات قلبى . ومهما اخترت من الكلمات لأعبر عما أرجوه لك من خير عميم ، ومستقبل زاهر . . . أجدنى عاجزاً عن ترجمة مشاعرى ، وتجسيد خلجات قلبى إلى واقع ملموس !

وأمس قرأت قصيدة لصديقى الشاعر المهجرى الأستاذ زكى قنصل يخاطب بها ولده « عمر » . وأبياتها يا « خالد » ترجمان لما يعتلج فى صدرى من حب وأمنيات هى ذوب مايرجوه كل والد لبنيه المثاليين صنوك !

والساعة يحلولى أن تقرأ معى قصيدة أخينا « أبى عمر » ردّ الله غربته :

على أنقاض مجدى سوف تبنى ... فطاول قبة الجوزاء يا ابنى !
عقدت عليك آمالى ، وإنى ... لأرويها إذا ظمأت بعينى
ليحيى أبوك فى حرج وخوف ... وترتع أنت فى فرج وأمن
إذا طافت بخاطرك الأمانى ... شعرت كأنها طافت بذهنى
وإن بثت لك الدنيا ترامت ... بشاشتها إلى أعماق حزنى
سهرت لكى تنام عل حرير ... إذا أغفيت أنت ارتاح جفنى
وجعت لكى تشب ، ولا أبالى ... إذا استقويت من ضعفى ووهنى
تموت أرومتى شيئاً فشيئاً ... لتمتص الحياة عروق غصنى
وتخبو نجمتى لتطل شمساً ... مشعشعة على سهل وحزن
ويذوى مرتعى زهراً ونهراً ... ليضحك وجه مرتعك الأغنّ
وأهبط سلم الدنيا لترقى ... وألتزم السكوت لكى تغنّى !

* * *

بنى لأنت فى دهرى حسامى ... وأنت على عواديه مجنّى
نشأت على المكارم ، لم تخيّب ... رجاى . ولم تحد فى الدرب عنى
صغيراً لم تزل ، لكن تعالى ... ذكاء القلب عن قدّ وسنّ
أكاد أرى على عينيك طيفى ... وأسمع فى هديلك رجع لحنى

أعدت إلى طفولته فؤادى فدعه فى ملاعبه ودعنى
غداً تطوى بشاشته الليالى وتمشى النار فى جنات عدنى

بروحى أفتديك ولا أغالى وما أنا من يمنّ ومن يمنى
لأنت أحب من نفسى لنفسى وأكرم موضعاً للقلب منى
سألت الله أن تحيا سعيداً إذا حققت أو خيبت ظنى
أرقّ قصائدى معنى ومبنى وأحلاها بياناً أنت يا ابنى !

حقاً إنها ترجمان الأشواق . ولسان حال كل أب مثالى يتمنى الخير لابنه . ناهيك إذا كان طموحاً للمجد . ساعياً للمعالى مثلك !

٢٥

الليلية يحتفل المسيحيون فى المشرق والمغرب بعيد ميلاد السيدا لمسيح . لكن هناك فارقاً بين « عيد » يحتفل به الغربيون . . . وبين « عيد » يحتفل به الشرقيون الذين تفيض قلوبهم بالروحانيات . . . وبالإيمان النابع من نفوس صدقت ما عاهدت الله عليه !

أذكر بهذه المناسبة أبياتاً نظمها الشاعر المرحوم على منصور الذى وقع فى الأسر الإسرائيلى عام ١٩٤٨ . وكانت يافا مقبرته . وقد أنشدها ليلة عيد ميلاد عام ١٩٤٢ . وهى تصوّر جراحات « فلسطين » التى باعها الإسخريوطى بثلاثين من الفضة !

اسمع مايقول المرحوم على منصور :

أنت رمز السلام أنت المسيح كيف فى عيدك الدماء تسيح !
فى العلا المجد للإله تعالى وعلى أرضنا السلام ذبيح
كل حىّ على البسيطة يشكو من عوادى زمانه وينوح
ماعلى الأرض يا « مسيح » « سلام» إن قلب « السلام »مضنى جريح
علم الله يابن مريم أنا من رزايا الحروب لانستريح
فلعل الحروب يقضى عليها يوم تندك للطغاة صروح
بشّر الكون يا ابن مريم بشر كنت جسماً وأنت لله روح

٢٦

فى شهر ديسمبر عام ١٩٦٨ عقد فى بيروت مؤتمر حقوق الإنسان الذى نظمته جامعة الدول العربية وكان « الإنسان الفلسطينى » المشرد أبرز الأبحاث التى دارت فى هذا المؤتمر .

ليس هذا هو المهم فى الأمريا « خالد » . إنما المهم أن هذا المؤتمر تلقى رسالة من الفيلسوف البريطانى برتراند راسل وقد تساءل فى مستهلها :

« كيف يمكن الإنسان أن يناقش حقوق الإنسان فى الشرق الأوسط دون الدخول إلى صلب الموضوع . وهو أن خلق إسرائيل وتوسعها قد أفضيا إلى إهدار حقوق عدد كبير من الناس يقدرون بالملايين !

وأى معنى لحقوق الإنسان إذا لم تكن تعنى حق المرء فى أن يعيش بسلام فى بلده ؟ ! »

وتساءل راسل :

« ما هى الحقوق التى يتمتع بها مئات الألوف من اللاجئين الذين يحيطون بإسرائيل والأراضى العربية التى احتلت أخيراً ؟ وإلى متى يتحملون مثل هذا العذاب ؟ وكيف يمكن للعالم أن يسمح باستمرار مثل هذا الشقاء الناجم عن عدوان صارخ ؟ ! »

وقال راسل :

« وإذا كان لهذا العام الدولى لحقوق الإنسان أن يعنى شيئاً فلا بد أن يشهد حملة عالمية لتأكيد حق شعب فلسطين بأكمله بوطنه . وبدون هذا العمل فإن أى كلام عن حقوق الإنسان يبقى فارغاً ! »

أود أن أسألك يا « خالد » :

لو كان فى الغرب والولايات المتحدة عشرات مثل برتراند راسل فهل كان العرب الفلسطينيون يطردون من بلادهم ؟

إخالك تقول : « كلا » !

الواقع يابنى أن وجود أمثال لويد جورج وبلفور وتشرشل . . . وإخوان هذا الطراز . . . كان السبب فى تشريد عرب فلسطين واغتصاب موطنهم الغالى !

حىّ معى يا « خالد » قداسة البابا بولس السادس عندما علق على الإعلان العالمى لحقوق الإنسان بقوله : « إن من المستحيل إقامة سلام حقيقى . . . دائم . . . مادامت حقوق الإنسان تمتهن وتداس ... ولا يعترف بها ! »

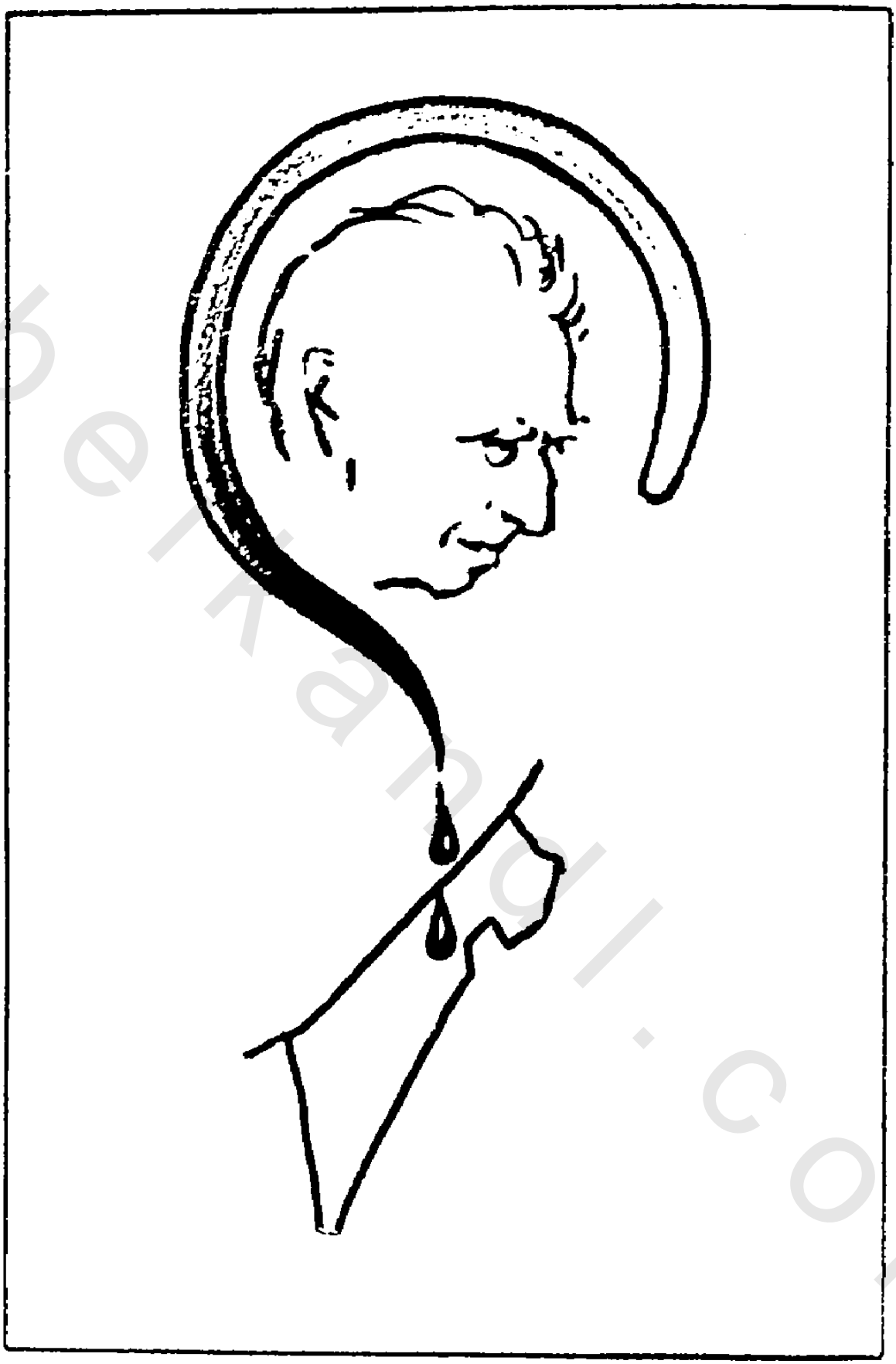

يتساءل برتراند راسل :

« كيف يمكن للإنسان أن يناقش حقوق الإنسان فى الشرق الأوسط دون الدخول إلى صلب الموضوع ، وهو أن خلق إسرائيل وتوسعها قد أفضيا إلى إهدار حقوق عدد كبير من الناس »

obeikandl.com

obeikandl.com

٢٧

اليوم يتظاهر العرب بمناسبة وعد بلفور الذى منح بموجبه وزير خارجية بريطانيا اليهود وطنا قوميا فى «فلسطين»

واليوم تذكرت يا «خالد» حكمة جاءت على لسان كاتب أمريكى هى : «أن الرجل الإنكليزى كريم بطبعه . . . وقد يبلغ به السخاء أن يمنحك القميص الوحيد . . . الذى يرتديه جاره ! «.

ألا ترى معى أن من القحة والحزن والعار أن يهب وزير خارجية بريطانيا «اليهودى التائه» بلداً عربياً له حضارة موغلة فى القدم ؟ وشعباً اشتهر بالذكاء والرجولة وتحدى الزمان ؟ !

٢٨

الحبيب «خالد» !

علمت ولا شك بإقدام السلطات الإسرائيلية على اعتقال السيدة «زائدة الخطيب» قرينة عمك المثالى فى وطنيته وصلابته وإيمانه «روحى الخطيب» ورفيقتها السيدة «مليحة الحسينى» والحكم على كل منهما بالسجن ثلاثة أشهر ، وإيداعهما سجن الرملة !

واليوم ذكرت الأنباء التى تسربت من الضفة الغربية أن السيدتين

المعتقلتين رفضتا عرضاً إسرائيليا يخيرهما بين النفى إلى الضفة الشرقية أو إطلاق سراحهما بكفالة « حسن سلوك ! »

أتدرى يا « خالد » ماذا كان جواب السيدتين ؟

كان : إيثار السجن على إعطاء كفالة « حسن السلوك ! » وبقاءهما وراء القضبان !

قالت السيدة « زايدة » لمن زارها فى سجن الرملة :

« هم يضطهدوننا . . . ويزجّون بنا فى غياهب السجون !

هم يبعدون رجالنا على أمل أن نلحق بهم ونترك الأرض والدار والوطن ليرتعوا فيه وحدهم !

هذا هدفهم . . . وتلك غايتهم !

ليس سهلا أن يتمنى الطفل أن يرى أباه فلا يستطيع ذلك . لأن العدو جاثم على صدورنا !

ليس سهلا أن تعيش المرأة وحدها فى هذا الجو العصيب . بعيدة عن رفيق حياتها !

لكن الأرض أهم . . . والدار أهم . . . والوطن أهم !

قسما لن أترك الأرض . . . أو أهجر الدار . . . أو أسلو الوطن !

سأظل صامدة هنا إلى أن يأتى يوم الخلاص . . . ويطل يوم النصر ! »

لقد ذكرتنى وقفة الصمود هذه بوقفة الشيخ عبد القادر المظفر

عندما ما اعتقلته السلطات البريطانية يوم الجمعة ٢٧ من تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٣٣ في يافا مع نفر من زعماء فلسطين ، وأودعتهم سجن عكا . وطلب إليهم أن يقدموا كفالات « حسن سلوك ! » تمهيداً للإفراج عنهم . فقدموا الكفالات المطلوبة باستثناء الشيخ المظفر الذى آثر السجن على تقديم الكفالة ... إيماناً منه بأن الكفالة المطلوبة لا تتفق و كرامة القضية الوطنية !

راقب المرحوم إبراهيم طوقان شاعر فلسطين هذه الرواية « البطولية » فآلمه ضعف الزعماء واستخذاء أصحاب « البطولات » فأنشأ يقول :

أحرارنا قد كشفتم عن «بطولتكم» غطاءها يوم توقيع الكفالات !
أنتم رجال خطابات منقمة كما علمنا . و «أبطال» «احتياجات!»
وقد شبعتم ظهوراً فى « مظاهرة » مشروعة وسكرتم بالهتافات !
ولو أصيب بجرح بعضكم خطأ فيها ؛ إذاً لرتعتم بالحفاوات
بل حكمة الله كانت فى سلامتكم لأنكم غير أهل للشهادات !

أضحت فلسطين من غيظ تصيح بكم :

خلوا الطريق فلستم من رجالاتى !

ذاك السجين (١) الذى أغلى كرامته فداؤه كل طلاب الزعامات!

و لم يقف « إبراهيم » عند حد تمجيد الشيخ المظفر والتنويه بموقفه المشرف ، بل أوحى له إعجابه بصلابة عود المظفر بأن يقول :

---

(١) يعنى به الشيخ عبد القادر المظفر .

انظر لما فعل « المظفر » إنه نفع القضية غائباً لم يحضر !
أحيا القلوب ، ودونهن ودونه غرف الحديد وحاميات العسكر
عرضوا «الكفالة» والكرامة عنده عبثاً وهل عرض يقاس بجوهر ؟
ورأى التحير فى التخير سبة فقدى كرامته بـ«ستة أشهر !»
لم يخل ميدان الجهاد بسجنه فلقد رماه بقلبه المتسعر !
ولكم خلا بوجود جيش زاخر يمشى إليه بخطوه المتعثر !
إن « المظفر » من حديد جسمه فيما أرى ، وجسومهم من سكر!

بعد هذا التفصيل الشذى الفوح حى معى يا « خالد » السيدتين المثاليتين « أم هانى الخطيب » ومليحة «الحسينى» ، وسل ربك أن يكثر من هذا الطراز الممتاز ، ويسخو على أمتك بالمناضلين السائرين على دروب الكفاح !

٢٩

خطر لى اليوم أن أخاطبك بلون جديد من الرسائل ، يختلف عن ألوان الرسائل التى وجهتها إليك .

خلال دراستى الثانوية كنت معجباً بقصيدة « إذا » للشاعر والروائى الإنجليزى « رود يارد كبلنغ » (١٨٦٥ — ١٩٣٦) .

ولتقبس العظة من هذه القصيدة الرائعة آثرت نقلها إلى العربية لتصيب الهدف الذى توخاه شاعر الإمبراطورية البريطانية :

إذا

استطعت أن تحتفظ برأسك فى الوقت الذى يفقد فيه من حولك رءوسهم ، وينحون عليك باللائمة !

إذا

وثقت من نفسك فى الوقت الذى يشك فيه الجميع . ومع ذلك سامحتهم لأنهم شكوا فيك !

إذا

استطعت أن تنتظر ولا تمل الانتظار ، ولم تقابل أكاذيب الناس بالأكاذيب !

إذا

كرهك الناس ولم تكرههم ، وإذا تظاهرت بأنك لست أحسن الناس ولا أحكمهم !

إذا

استطعت أن تحكم دون أن تسيطر عليك أحلامك ، وأن تفكر ولا تجعل التفكير هو كل أهدافك !

إذا

استقبلت النصر كما تستقبل الهزيمة سواء بسواء ، وإذا استطعت أن تتحمل نتيجة أقوالك ... وأن تشاهد المعول يهدم كل ما وقفت من أجله حياتك ، وتنحنى لتبنى من جديد ما تهدم !

إذا

استطعت أن تجعل من كل انتصاراتك نصراً واحداً ، ثم تغامر

به وتفقده . ثم تعود فتبدأ من جديد بغير أن تتحسر على ما فقدت وما تعبت !

إذا

صبرت فى وقت لا تملك فيه سوى إرادتك . تصرخ فيك وتهيب بك أن تتماسك !

إذا

استطعت أن تتحدث إلى الشعب بغير أن تفقد فضائلك . وأن تصاحب الملوك بغير أن تفقد اتصالك بالشعب !

إذا

استطعت أن تمنع الأعداء والأصدقاء من أن ينالوا منك . وأن تحسب لكل إنسان حسابه . ولكنك لا تخشى الناس مجتمعين !

إذا

استطعت أن تملأ فراغ كل دقيقة بالعمل . وإذا كانت كل ثانية فى حياتك تمضى فى جهد مفيد !

إذا

استطعت أن تفعل ذلك كله . ملكت الأرض وما عليها ..وأصبحت أكثر من ذلك .. أصبحت رجلا ياولدى ! » .

لعل المقطعين الأخيرين هما « زبدة » هذه الرائعة الشعرية ... ولعلك تحفظهما عن ظهر قلب ... وتتخذ منهما قاعدة ذهبية لأعمالك وتكررهما كل صباح وهما :

« إذا

استطعت أن تملأ فراغ كل دقيقة بالعمل ؛ وإذا كانت كل ثانية فى حياتك تمضى فى جهد مفيد !

إذا

استطعت أن تفعل ذلك كله . ملكت الأرض وما عليها ... وأصبحت أكثر من ذلك ...

أصبحت رجلا ياولدى ! » .

٣٠

جاء فى قصيدة طالعتها هذا الصباح بيت من الشعر حمل همًا ، وفاض غمًّا ، وحجب عن عينى قائلة بهجة النور والإصباح ... وهذا البيت الفاحم هو :

طلع الصباح . فما ابتسمت ولم ينر وجهى الصباح !

لا أدرى يا ولدى كيف أفسر هذا التشاؤم .. وفى وسع صاحبنا أن يواجه الحياة بابتسامة الفليسوف الضاحك ... وصبر الحكيم المجرب !

عرف العالم طائفة من المتشائمين . على رأسهم أبو العلاء المعرى (٩٧٣ — ١٠٥٧) وشوبنهور الألمانى (١٧٨٨ — ١٨٦٠) لكن يد الله سخت على العالم بشاعر ضاحك متفائل كأبى ماضى القائل :

أيهاذا الشاكى وما بك داء كن جميلا ترى الوجود جميلا

كن مع الفجر بسمة توسع الأز هار شما وتارة تقبيلا

لا سموماً مع السواقى الدواقى تملأ الأرض فى الضلاء عويلا
ومع الليل كوكباً يؤنس الغا بات والنهر والربى والسهولا
لا دجى يكره العوالم والناس فيلقى على الجميع سدولا

انظر يا « خالد » الفرق بين شاعر يغرق فى التشاؤم حتى شحمة الأذن ... وشاعر ضاحك يسبح الله فى قصيده ونشيده !

أريد منك يا « خالد » أن تقابل الحياة بالتفاؤل . وتأخذها بالصبر وعلى ثغرك ابتسامة المؤمن الراضى !

٣١

لا تسل عن فرحتى هذا الصباح بنبأين طالعتهما فى مجلة « البيان » الكويتية . أولهما :

صدرت فى الهند ترجمة باللغة الأوردية لجمهورية أفلاطون . ومترجمها هو رئيس جمهورية الهند الراحل السيد ذاكر حسين . ولقد ظهرت هذه الترجمة القيمة بين حوالى ثلاثين مصنفاً آخر نشرتها أكاديمية الآداب الهندية . وكلها من عيون الآداب الكلاسيكية الغربية بمعاونة من اليونسكو . وثانيهما :

ظهرت مؤخراً ترجمة أدبية أخرى بقلم رئيس جمهورية تانزانيا جوليوس نيريرى لمسرحية شكسبير « يوليوس قيصر » إلى اللغة السواحلية .

لو استعرضنا تاريخ أدبنا العربى قديماً وحديثاً لوجدنا فيه عشرات من أسماء الخلفاء والملوك والأمراء الذين صنفوا الكتب . وقرضوا الشعر !

أو لم يقل الزبير بن بكار :

« الكتاب ملوك . وسائر الناس سوقه ! »

أو لم يقل فولتير :

« وما على إذا لم يكن فى صولجان .. أفليس فى قلم ؟! »

٣٢

سألتنى فى رسالة تلقيتها هذا الصباح :

« ما سبب ضعف العرب ؟ »

للإجابة عن هذا السؤال عدة أسباب أبرزها كما قرأت فى صدر شبابى قول غوستاف لوبون فى كتابه « حضارة العرب » :

« من جملة الأسباب فى ضعف العرب اختلاف الأمم الذين خضعوا لسلطانهم . فقد أدى هذا الاختلاف إلى تمازج شعوب لا يشبه بعضهم بعضاً ، وإلى تنازع هذه الشعوب !

ونشأ عن هذا كله تزاوج عناصر متباينة ، فأفسد هذ الزواج ، دم الفاتحين من العرب . ولقد كان تمازج الشعوب المتباينة فى بلاد واحدة سبباً فى انقراض هذه البلاد فى كل عصر من العصور .

ولقد أثبت التاريخ ألا سبيل إلى إبقاء أجناس مختلفة فى قبضة

واحدة إلا بأمرين :

الأول : أن يشتد سلطان الفاتحين فلا تخرج الخوارج عليهم .

والثانى : ألا يتزوج الغالب من نساء المغلوب . أى : ألا يندمج الغالب فى المغلوب . وهذا الأمر الثانى لم يحذره العرب ! »

نعم ! لم يحذر العرب هذه العوامل كلها حتى اختلطوا فى الأعاجم . فتفرقت كلمتهم . وذهبت ريحهم . وضعف تغنيهم بعروبتهم !

٣٣

لعلنى لا أزعجك بحديثى عن أضرار التدخين وتسببه فى السرطان !

قبل أيام نشرت صحيفة « نيوريوك تايمز » رأياً للدكتور إيمرسون مدير الأبحاث الخاصة باكتشاف السرطان (بمركز سلون — كترنج التذكارى للسرطان) . ورئيس لجنة مكافحة السرطان بمدينة نيويورك ، قال فيه :

« ثبت بطريقة صحيحة أن تدخين السجائر عامل ذو أهمية مباشرة وكبرى فى نشوء سرطان الرئة . ولا يجادل أبداً فى تبرئة ساحته ! »

وفى نفس الأسبوع الذى نشرت « نيويورك تايمز » هذا الرأى نشرت صحيفة « نيويورك هيرالد تريبون » مقالا بقلم الكاتب العلمى إيرل أوبل جاء فيه :

« لقد كشف العلماء عن أن التدخين شر مصيبة جديدة بين

شعبنا ، وهى مرض « الامفيزيما » أو « ضيق النفس » ، وهو مرض يصيب الرئة . ويترك ضحيته يلهث وهو يريد أن يتنفس ! »

وأنهى الكاتب العلمى مقاله بكلمة قالها نائب مدير القسم الطبى بسلاح الطيران الأمريكى هى :

« أن الأدلة المتزايدة التى تربط تدخين السجائر بسرطان الرئة وأمراض القلب والرئة لا يمكن تجاهلها ! »

أنقل إليك يا « خالد » خلاصة ما قيل حول علاقة التدخين بسرطان الرئة .. وأسأل الله أن يجنبك التدخين ، ويقيك شر هذه الآفة البشرية السامة !

٣٤

كان رجالنا الأوائل على مدى واسع من الحكمة والمعرفة وسداد الرأى . وبهذه الصفات حكموا العالم .

أمس عثرت على كلمة للخليفة العادل عمر بن الخطاب هى :

« إنى لأرى الرجل فيعجبنى فأقول :

هل له من حرفة ؟

فإن قالوا : " لا " سقط من عينى ! »

ومن أقوال « فولتير » التى مازلت أحفظها :

« الناس كافة طيبون إلا الذين لا عمل لديهم يزاولونه ! » . .

شعر الخليفة العربي بسمو الحرفة . وجلال قدرها ... فأرسل حكمته هذه !

أولا يجدر بشبابنا الجامعيين أن يقبلوا على طلب « الحرفة » التى تقيهم ذل السؤال . وتوفر لهم حياة كريمة . وتؤمن لهم مستقبلا أفضل ؟ !

إنهم إن فعلوا هذا ... كانوا حكماء ... وإن ساحوا فى متاهات الغباوة ... حكموا على أنفسهم بالدمار . وعلى ذراريهم بالهلكة !

٣٥

أخرس الموت قلب البطل اليونانى العظيم جورج بابا ندريو رئيس الوزارة اليونانية الأسبق . فانطوت بموت هذا المجاهد الجرىء صفحة مشرقة من صفحات تاريخ اليونان الحديث . وتوارت انتفاضة وطنية كبرى بموت الرجل الذى قاد معركة الجهاد . ضد أعداء الديمقراطية فى مهد الديمقراطية !

كانت لهذا الشيخ الإغريقى مواقف مشهورة مع الملك الشاب قسطنطين (المبعد اليوم) . وكان ينظر إليه نظره إلى شاب نزق مغرور يحاول الاعتداء على الديمقراطية . .

إن الديمقراطية الصحيحة لتفاخر بمثل هذا الطراز الممتاز من الرجال الأفذاذ ، وهم فى نظرى المدافعون عن حياض الكرامة ، المنافحون عن شرف « الإنسان » وسيظلون أساطير نضال . وستظل مواقفهم الصلبة

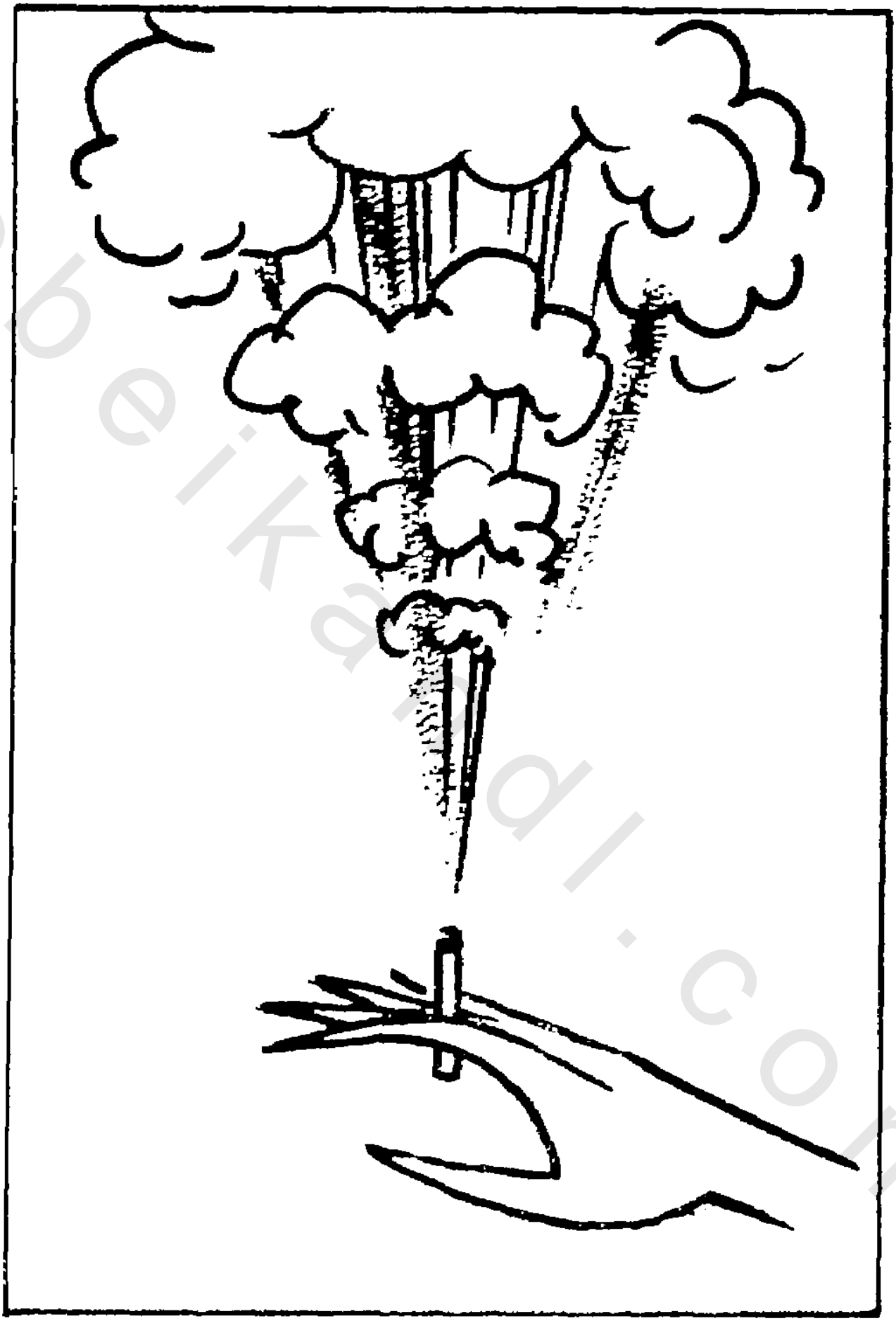

أسأل الله أن يجنبك التدخين ويقيك شر هذه الآفة البشرية السامة

obeikandl.com

obeikandl.com

منارات عزة وفخار للأجيال القادمة . يأتمون بهديها ، ويتطلعون إليها كمثل ... ودرس ... ينبغي الاقتداء به !

ولكن ما أقل هذه الجوهر الفرد في هذا العصر !

٣٦

أمس زارتنا سيدة عربية قدمت من الضفة الغربية بفلسطين ، وحدثتنا حديث الزهو والاعتزاز عن أبنائنا الفدائيين الذين أقضّوا مضجع إسرائيل . ولقنوها دروساً في التضحية والفداء . وأفهموها بلغة الحديد والنار أن العرب لن يستخذوا لها . ولن يفرطوا بفلسطين ، وطنهم المغصوب . مهما تألبت عليهم قوى الشر والطغيان . وسيظلون يحاربون ويكافحون إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولا !

يذكرني حديث السيدة العربية بالحرب العالمية الثانية . يوم صب « هتلر » جام غضبه على بريطانيا . وغزاها بحراً وجواً . وحاصر الألمان الجزر البريطانية ... فمنعوا عنها الغذاء . وقل الرجاء !

نعم ! قل الرجاء إلا صوتاً واحداً جلجل بينهم ... فصنع من الهزيمة نصراً . ومن المجاعة شبعاً . ذلك هو صوت الشيخ الصابر ونستون تشرشل القائل في خطبته الشهيرة التي يحفظها إلى اليوم صبيانهم وصباياهم :

« ... سنحارب مهما كان الثمن ... سنحارب ونحمي سواحلنا ... سنحارب على أرض مطاراتنا كل غاز ، وسنحارب في حقول ريفنا ،

وفى شوارع مدننا ، وسنحارب فوق رءوس تلالنا . . . لن نستسلم أبداً . ولو وقعت هذه الجزيرة فى قبضة الأعداء فلسوف ننتقل بالحرب خارجها برجالنا ... بأسطولنا ... ! » .

وبعد صراع دام خمسين عاماً بين عرب فلسطين والإنكليز ، ومن بعدهم اليهود ، صمم أهل فلسطين ومعهم إخوانهم العرب ، على الصمود والكفاح . ولسان حال كل منهم ينشد قول المتنبي :

عش عزيزاً أو مت وأنت كريم
تحت طعن القنا وخفق البنود !

والواقع يا بنى أن الأحداث الجارية دلت العرب على أن الكفاح المسلح هو طريق النصر !

سبب العيش عدة وكفاح لا يصون الحقوق إلا السلاح

٣٧

اليوم نحتفل ، أنا ووالدتك ، باليوبيل الفضى لزواجنا ... أى بمناسبة مرور ٢٥ عاماً ! وهنا أستعير عبارة من السيد تشرشل العجوز جاءت فى مذكراته :

« كان زواجى أسعد حادث وقع لى فى حياتى ! »

واستطراداً مع هذه العبارة أقول : إن زواجى كان ناجحاً إلى أبعد حد ... وأحمد الله الذى هيأ لى رفيقة درب اتسمت بالعقل والرصانة ،

والهرب من القشور . ولولاها ، ولولا والدتها السيدة المثالية ، لما كنت وشقيقاتك الثلاث مضرب المثل فى التربية ، ودماثة الأخلاق والبعد عن الزهو والخيلاء !

حقاً يا « خالد » لقد كان زواجى أسعد حدث وقع لى فى حياتى !

٣٨

إخالك قرأت فى الصحف اليومية نبأ الظاهرة الإسرائيلية التى دمرها فدائيان عربيان فى أثينا ، انتقاماً من بربرية إسرائيل والهجمات الجوية التى قامت بها على المدنيين العرب فى الضفة الشرقية !

يسوقنى هذا الحديث إلى حديث قديم العهد ، وقع لى خلال زيارتى سان باولو (البرازيل) فى عام ١٩٥٠ .

والحديث القديم العهد أنقله إليك بالحرف الواحد من موسوعتى المهجرية « الناطقون بالضاد : فى أمير كا الجنوبية » :

« قنبلة قروية » :

بعد أيام من وصولى إلى سان باولو دعانى « الشاعر القروى » لحضور حفلة مولد النبى العربى الكريم ، الذى جمع من شتات البدو دولة ، وبعث من جوف الصحراء حضارة ، ونفخ فى قلوب العرب من روح الله ! فطمحوا إلى ملك كسرى وهم جياع ، وسموا إلى عرش قيصر وهم عراة ، وحكموا العالم وهم سذج ، وظهروا للعيان أمة واحدة

تهدف هدفاً واحداً . وتعبد ربّاً واحداً مدت جناح ملكها من نهر « تاج » بإسبانيا إلى نهر « الكانج » فى الهند . أى من نهاية المشرق إلى أول المغرب . ورفعت أعلام الحضارة فى سائر أنحاء المسكونة أيام كانت أوربا سادرة فى جهالتها !

فى الموعد المضروب وافانى صديقاى الشاعران «القروى » و«ميشيل مغربى » حيث سرنا خفافاً طائرين إلى دار « الجمعية الخيرية الإسلامية » وهناك تناول نفر من الخطباء رسالة « سيد قريش » من كافة نواحيها وأبعادها . وهاهو ذا الشاعر القروى ،نشوان طروب بآى الذكر الحكيم يرتله شاب حمصى رخيم الصوت .

وفى خاتمة المطاف وقف «القروى » بقامته الفارعة . وانهال على القوم بسياط الزجر والتقريع . وأرسل شعره ناراً لذعت من أخذتهم سنة النوم فاستكانوا عن أخذ الثأر . بالصارم البتار ... !

وهل قرأت لشاعر يغار على أمته شعراً لاذعاً مشحوناً بالسخرية : كالشعر الذى أنشده « القروى » قديس القومية العربية فى تلك الأمسية : فهز به أمة طيبة الأعراق . ونفخ فيها من روح البطولة . وحضها على ألاّ تنام على عار الهزيمة !

ودونك أبيات « القروى » التى حملها الأثير إلى البسيط العربى : فهز أحراره المتطلعين إلى فجر يوم جديد !

يهنئ بعضكم بعضاً وإنى أهنى النفس أنى لا أهنى
أأنقض مبدئى وأخون عهدى مسايرة لكم ويقال إنى..؟!
أرى تفاح هذا العيد جمراً ولو قطفوه من جنات عدن

وأمس ناعم الأزهار شوكاً وأنشق عضرها نتناً بتن
ويطرف ناظرى حسن الغوانى ويجرح مسمعى شدو المغنى

أأرضى و« الرسول » قتيل غيظ وأفرح و« المسيح » شهيد حزن؟
وعيد هائل سمعته روحى ولولا لغطكم سمعته أذنى !
أمسخرة الشعوب لعنت شعباً ذليلا لست منك ولست منى !

تعيد لى وأنت تبيح أرضى وعرضى لليهود إليك عنى !!

ولكن يا « خالد » !

بعد هذا الوعى القومى الذى لف العرب فى كافة أمصارهم بشملته ألا توافقنى على استبدال عبارة :

« أمسخرة الشعوب ... »

بعبارة :

« أمفخرة الشعوب ... » ؟

إخالك توافق على هذا الإبدال .. وتبارك .. وتصفق !

٣٩

• أرجو أن تصلى يا « خالد » ! ...

صباحاً : عند بكورك من النوم ،

ومساء : عند ما تأوى إلى الفراش .

وأن تتوجه إلى الله بقلبك الكبير وتسأله تحقيق أمانيك العذاب ، والرأفة بأمتك ، والإشفاق على عالم يموج بالمخاطر !

واذكر يا ولدى كلمة « غاندى » القائل :

« إن الصلاة التى تصدر من القلب ... لن تضل طريقها إلى الله ! »

كتب « فولتير » قبل وفاته بثلاثة أشهر يقول :

« إنى أموت وأنا أعبد الله . وأحب أصدقائى . ولا أكره أعدائى ، وإنما أكره الاضطهاد فقط ! » .

٤٠

اليوم أحلت على التقاعد !

فافرح معى يا « خالد » وشاركنى فى بهجتى . لانفكاكى عن الوظيفة التى أراها « قيداً » يكبل طموحى و « أصفاداً » تغل حريتى وفكرى !

اليوم يا ولدى أشعر بامتلاك حريتى ... ومن قبل كنت أرى نفسى « عبداً » لطغمة من الناس دأبها « العنطزة » واستغلال الوظيفة !

كان العصر الذهبى الذى عشته فى الثلاثينات ... ذلك العصر الذى عملت فيه مع نفر من بناة هذا البلد ، تميزوا بنظافة اليد والترفع عن ملء الجيوب !

إخال فهمك كفاية .. وأسأل الله أن يجنبك « الوظيفة » ويبعد عنك

أغلالها . ويهيئ لك عملا كريماً يؤمن لك حياة موفورة العزة والكرامة !

أمنيتي يا « خالد » أن تفر من « الوظيفة » فرارك من « الأجرب » . . . ولعلك تشاركني في الفرحة بعد أن تحررت من خشخشة القيد ، وصليل الأغلال !

في عام ١٩٤٥ استقلت من عملي الحكومي في ديوان رئاسة الوزراء بعمان . وعندما تناهى نبأ ذلك إلى عمك الأستاذ فريد السعد كتب إليّ من « حيفا » يقول :

« أحسنت في ترك العمل الحكومي . والموظف في نظري هو شخص طفيلي يعيش على فتات الموائد ! »

وكتب « عرار » شاعر الأردن إلى بكره الأستاذ وصفي التل عندما كان طالباً في الجامعة الأمريكية ببيروت يقول :

« أحذرك من الالتحاق بالوظيفة . فراتب الوظيفة هو من عرق الفلاح ، والله لا يبارك من يستبيح عرق هذا المسكين . ويستغل شقاءه ، ويسخره مطية لأغراضه ! »

٤١

أمس استمتعت بكتاب حمله إلى البريد هدية من الخارج . ولقد وقع نظري على عبارة هي رأس الحكمة بعينه . لأبي الحسن الشاذلي :

« نحن كالسلحفاة التي تربي أبناءها بالنظر ! »

صدقني يا « خالد » أنني لا أذكر وأنت يافع أنني مددت إليك

يداً بالضرب ... أو عنفتك مرة ... أو هززت فى وجهك عصا الزجر والتأنيب... والفضل فى هذا كله لتربيتك البيتية أولا . ولطبيعتك الخادئة الوادعة ثانياً !

ولقد عشت بيننا ما عشت فكنت عميق التفكير . سديد الرأى . هادئ الطبع . و كانت تربيتك بالنظرة .. كما تربى السلحفاة أبناءها !

٤٢

كان اللغوى الشهير المرحوم رشيد الشرتونى ينادى العرب المسيحيين بقوله : « علموا أولادكم القرآن ! »

إيماناً منه بأن العربى لا يملك ناصية لغته ما لم يحفظ القرآن الكريم . عن ظهر قلب . عندها يقوى أسلوبه . وتجزل عبارته !

للإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه قوله :

« مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأترجة[1] ريحها طيب . وطعمها طيب ! ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن مثل التمرة . طعمها طيب ولا ريح لها ! ومثل الفاجر الذى لا يقرأ القرآن مثل الحنظلة . طعمها مر ولا ريح لها ! »

(١) شجرة من فصيلة الليمون .

٤٣

اعذرنى إذا أكثرت من الحديث عن العصاميين الأفذاذ ... وكما تعلم فإننى شديد الإعجاب بكل عصامى يبنى مستقبله .. لبنة لبنة !

قبل اليوم حدثتك عن ثلاثة من العصاميين هم :

ابن لادن السعودى . أوناسيس اليونانى . والحاج عبد الحميد شومان الفلسطينى !

واليوم يحلو لى أن أضيف إلى هذا العقد عصامياً من طراز فريد . وهو المؤرخ جورجى زيدان مؤسس مجلة «الهلال» وصاحب المؤلفات الشهيرة !

ولد زيدان عام ١٨٦١ فى بيروت ونشأ فى أسرة فقيرة متواضعة ... وكان والده أمياً ، وقد شعر بالحاجة إلى الكتابة والقراءة لما فتح مطعماً صغيراً فى ساحة البرج ببيروت ؛ فدفعته حاجته إلى أن يبدأ بتعليم ولده جرجى القراءة والكتابة ؛ فأرسله وهو فى سن الخامسة ؛ إلى معلم شبه أمى ... وانتقل جرجى إلى مدرستين أخريين خرج منهما فى سن الحادية عشرة ليساعد والده فى مطعمه إلى أن يوفق فى استخدام « سفرجى » !

وبعد سنة من عمله فى المطاعم أدخله والده فى صناعة الأحذية ، ولكن العمل أثر فى صحته . فعاد إلى المطعم !

ومن ساحة البرج غادر جرجى مضطعم والده ، ليلتحق بالكلية الإنجيلية السورية (الجامعة الأمريكية اليوم) واستضاع بجلده وصبره ورغبته الحقيقية فى العلم أن يجتاز الامتحان المؤهل لدخوله الكلية . والتحق بمدرسة الطب . وهو لا يصدق أنه قد تم له كل هذا النجاح !

وكم كانت فرحته شديدة عندما بدأ توزيع شهادات الامتياز فى آخر العام ونودى باسمه . ونال شهادة الامتياز باليكيمياء التحليلية وباللغة اللاتينية !

واضطر جرجى إلى ترك مدرسة الطب تضامناً مع زملائه الذين احتجوا على موقف رئيس الكلية من أستاذ قدير أحبوه ، وقرر السفر إلى القاهرة لإتمام دراسة الطب ، فى مدرسة « قصر العينى » ولم يلبث أن تحول إلى الصحافة والأدب .

أصدر مجلة « الهلال » عام ١٨٩٢ فى القاهرة . وأفاد من معرفته بعدة لغات أوربية وبعض اللغات السامية فى اقتباس طرائق البحث الحديث فى اللغة والأدب والتاريخ ووضع طائفة من المؤلفات الشهيرة . كما كتب سلسلة من الروايات التاريخية المشوقة . وفى عام ١٩١٤ توفى هذا الصحفى العصامى فى القاهره . وهو من شوامخ مؤرخى العرب !

٤٤

وردت فقرة فى خطبة ألقاها الملك جورج السادس ليلة عيد الميلاد فى عام ١٩٤٢ هى :

« اعتاد أحد رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية أن يروى أن ولداً كان يحمل طفلا صغيراً إلى أعلى الجبل : فلما سئل :

« أليس هذا الحمل ثقيلا عليك ؟ .

أجاب :

« هذا ليس حملا ... إنه أخى »

تفيض رسائلك إلى بشكرى على ما ضحيت فى سبيل مستقبلك وفى سبيل والدتك وشقيقاتك .. !

هل نسيت يا « خالد » أننى والدك ... وعلى الوالد المثالى العطوف أن يضحى بنفسه .. ليوفر لأكباده التى تمشى على الأرض حياة أفضل !

لا تنسى أنك « النسخة الثانية » عنى !

ولا فرق بين « النسختين » !

٤٥

هل تؤمن بالنبوءات يا « خالد » ؟

أمس وقع نظرى على بيتين لشاعر قديم ، أشار فيهما إلى عصر المذياع .. والتلفاز .. وهما :

غنت سليمى فى الحجاز فأطربت من بعدها أهل العراق نشيدا
ولو انها رقصت بمصر فقدترى فى أصبهان لقدّها تأويدا

هذان البيتان يصوران ما نشاهده على شاشة التلفاز ... وما يبثه المذياع من طرب وغناء .. !

فكيف تفسر هذه النبوءة التى نطق بها الشاعر العربى قبل مئات السنين ؟

لا أدرى !

ولست تدرى !

ولا المنجم يدرى !

٤٦

هل تظننى رجعيًّا يا « خالد » ؟

كلا ! لست رجعيًّا متزمتاً.. لكننى محافظ على تقاليد مجتمعنا..

حريص على عاداته المستحبة !

إننى من القائلين مع الإنسان الأديب المرحوم شكرى شعشاعة :

« علينا أن نقتبس كل جديد ونافع ، ولا فرق عندى أن يكون مصدره المجوس أو المسلمين . مكة أو باريس ! » .

إننى من المنادين بحرية المرأة ، والقائلين بسفورها ، لأن الحياة تتطلب الانقلاب والتطور ، لكننى لا أبارك إسرافها فى التبرج والزينة وارتداء المينى جوب ... وأمقت تنكرها لتقاليد محيطها وتقليدها بريجيت باردو وصوفيا لورين !

سأكون أكثر صراحة بقولى :

« إن المرأة التى تصنع لى صينية البطاطس فى الفرن أجدى عندى من المرأة التى تقدم لى جميع دبلومات الفلسفة ... وتجيعنى !

٤٧

اسمع يا « خالد » !

كتب طالب جامعى إلى والده ، يقول :

« والدى !

أكتب إليك يوم الاثنين ، وأرسل خطابى إليك يوم الثلاثاء ، فيصلك الأربعاء ، وتفهم الخميس أن دراهمى قد نفدت ... وإذا

لم ترسل فى غيرها الجمعة فسأركب القطار السبت ، وأكون عندك يوم الأحد ! » .

فأجابه الوالد :

« وصلنى خطابك الاثنين ، وقرأته الثلاثاء ، وليس معى دراهم الأربعاء . فتسلم جوابى الخميس ، واقرأه الجمعة ، وإذا حضرت السبت أخلع رقبتك الأحد ! » .

لكنك يا « خالد » لم تفعل شيئاً من هذا . لأنك شاب مهذب . تزن الأمور بميزان العقل . وتفكر ألف مرة قبل أن تخطو أية خطوة !

ومنذ كنت يافعاً ، كنت متزناً فى نفقاتك ، لا تبتاع إلا الضرورى من حاجاتك . وفقك الله ، وسدد خطاك ، وحقق مناك ، وجنبك الإسراف والإتلاف .

٤٨

بعد أن طغى « اليهودى التائه » وبغى فى المشرق والمغرب ، واستفحل نفوذه ، فى الولايات المتحدة ، وسخر « العم سام » فى سبيل أغراضه ، أصبحت أشك فى « الديمقراطية التى تزعمها الولايات المتحدة !

وأمس وقفت على مقال فى صحيفة يومية عنوانه « مأساة الحرية ! »

تعال يا « خالد » لنقرأ معاً :

« الموكب الصامت الحزين الذى سار فى شوارع واشنطون يتقدمه

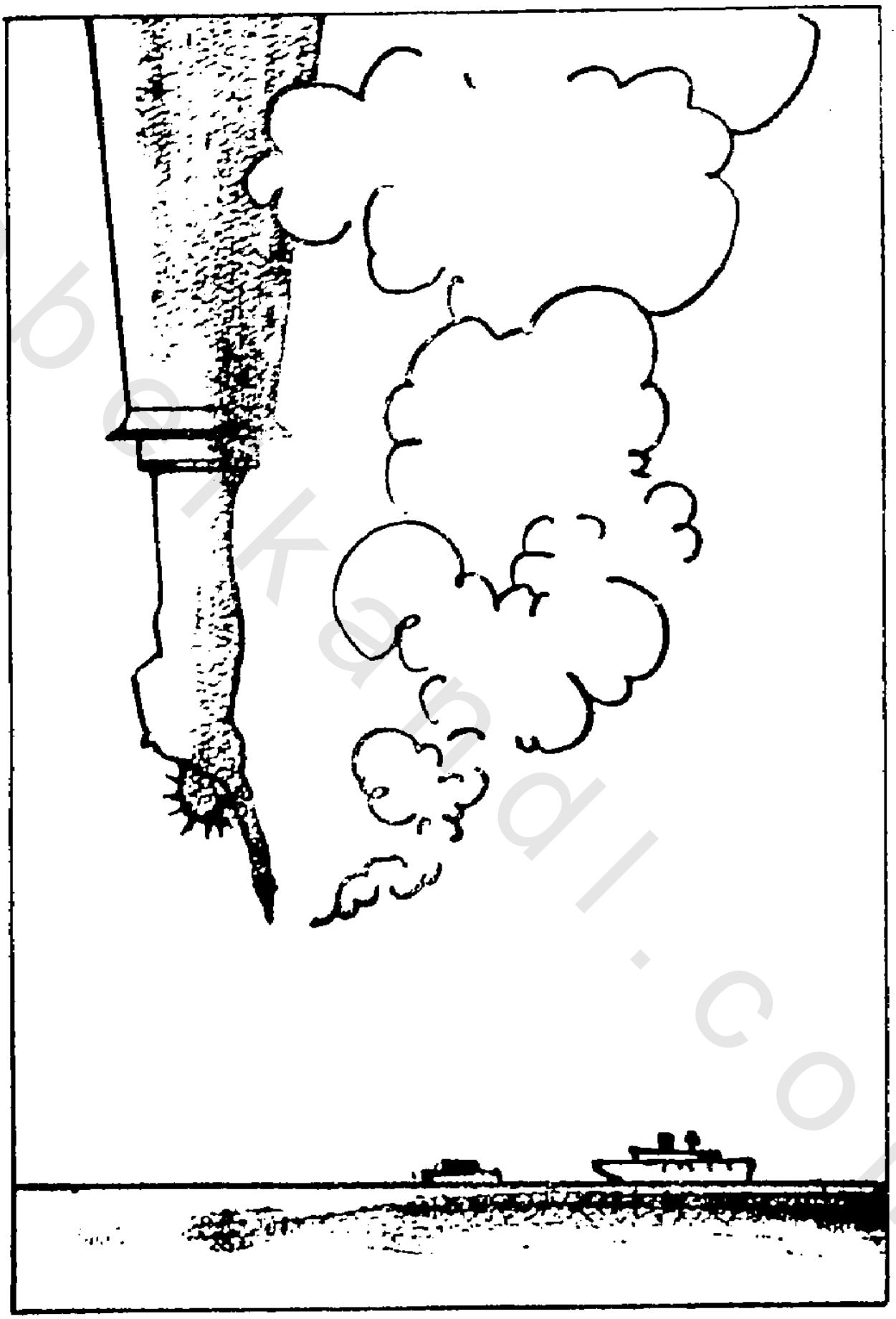

إن الحرية المفقودة فى الولايات المتحدة ، ستبقى وصمة عار فى جبين الإنسان الأبيض

obeikandl.com

obeikandl.com

الألوف من الزنوج . يصور أصدق تمثيل مأساة الحرية فى الولايات المتحدة التى تتشدق بالتغنى فى أراضيها و تبشر بها فى أنحاء العالم !

مأساة الإنسان الأسود تصفع الإنسانية فى أعز ما تفخر به . وتحطم كرامات ملايين الزنوج الذين يناضلون من أجل إلغاء التمييز العنصرى . والعيش بسلام واطمئنان مع إخوانهم البيض !

لقد قتل بالأمس الزعيم الزنجى فى الولايات المتحدة القس مارتن كنغ . لأنه يدعو إلى التعايش وإلغاء التمييز بين الإنسان وأخيه الإنسان فكانت الجريمة الوحشية التى يتحمل وزرها الإنسان الأبيض فى أمريكا مصدر نقمة وسخط شديدين من جميع شعوب الأرض الداعية للإخاء والمحبة والسلام !

إن تمثال الحرية الذى ينتصب بشموخ على مدخل نيويورك يجب أن يحطم ويدك . لأن الأمة التى تتخذ شعارها «الحرية» ويسقط أبناؤها دفاعاً عن الحرية ضد إخوانهم ، وليس ضد أى مستعمر خارجى ، لا تستحق أن تدعى بما ليس عندها وليس بودها ، كما تزعم . أن تمنح الحرية للشعوب . وبودنا لو تنتفع بقول الشاعر العربى :

يأيها الرجل المعلم غيره هلا لنفسك كان ذا التعليم!

إن الحرية المفقودة فى أرجاء الولايات المتحدة . والاضطهادات التى يتلقاها الإنسان الأسود هناك ستبقى وصمة عار فى جبين الإنسان الأبيض . وفى جبين الشعب الذى يدعى الحرية وهى براء منه ! »

٤٩

أبرز ملحق « الأنوار » حديثاً للصحفية الفرنسية ميشيل راى . نشرته مجلة « كونكرات اليسارية الألمانية الغربية » عن الفدائيين الفلسطينيين وتمضيتها مدة شهرين معهم .

ولقد ختمت هذه الصحيفة حديثها بهذه العبارة :

« وأذكر ذات يوم أننى شاهدت صليباً من ذهب يطل من صدر أحد الفدائيين . فاستغربت ذلك ، إذ كنت أظن الفدائيين جميعاً من المسلمين . ولما قلت ذلك للفدائى ابتسم وقال :

« ألا تعرفين أن هنا عشرات من المسيحيين العرب مثلى ، يقاتلون فى صفوف « فتح » ؟

إننا جميعا عرب . والصهيونيون لا يميزون بين مسيحى ومسلم ، الاثنان لديهم من العرب سواسية ، ويجب التخلص منهم !

لقد اعتدوا على كنائسنا كما اعتدوا على مساجد إخواننا المسلمين ! »

أسوق إليك هذه النبذة وأسوق معها بالمقارنة الحادث التاريخى التالى :

لما كان القائد العربى أبو عبيدة بن الجراح يقود جيشاً عربيا على مشارف الشام لتحرير سورية من حكم بيزنطية ، كتب إلى جبلة بن الأيهم الملك الغسانى يقول :

« هل تحاربون مع أبناء دينكم (يعنى الروم) ؟ أم تحاربون مع أبناء الأعمام والأخوال ؟ »

فأجابه جبلة بن الأيهم بقوله :

« بل نحارب معكم يا أبناء الأعمام والأخوال ! »

لو عرف الغرب أن العرب عرب قبل عيسى ومحمد : لما حاولوا زرع بذور الشقاق بين هذين الشقيقين !

ولو أدرك الغرب أن الفرق بين العربى المسلم والعربى المسيحى هو كالفرق بين الأمريكى البروتستانتى والأمريكى الكاثوليكى ، لكفوا عن الدس والتفرقة والوقيعة بين هذين الشقيقين !

٥٠

أجاءك نبأ الصراع العنيف الذى قام بين كاهن أرجنتينى وبين الصهيونية العالمية ؟

دونك تفصيل ما وقع :

قرر كاهن كاثوليكى فى بونس آيرس (عاصمة الأرجنتين) إقامة قداس عن أرواح الفدائيين العرب الذين سقطوا فى حومة الشرف وهم يكافحون لتحرير فلسطين .

وليجئ القداس حافلا بالمؤمنين وزع الأب أليو مينيفيل منشوراً

جاء فيه أنه سيرثس القداس « عن أرواح الذين سقطوا وهم يكافحون لتحرير فلسطين . وكذلك عن أرواح اللاجئين العرب ضحايا العدوان الصهيونى ..

ما كاد هذا النبأ يذاع حتى شنت الجالية اليهودية فى بونس أيرس حملة عنيفة على ذلك الكاهن الشريف . واتهمته باللاسامية . الأمر الذى اضطر رئيس أساقفة بونس أيرس للتدخل فى الأمر وإلغاء القداس المنوى إقامته فى الكتدرائية الكاثوليكية . وحجته فى ذلك أن الكاهن لم يحصل على « ترخيص » ! بإقامة القداس !

أسقط فى يد الأب أوليو مينيفيل .. واتهم باللاسامية . وشن عليه الزعماء الصهيونيون هجوماً عنيفاً . وزعموا أنه معاد للسامية . وأن القداس المذكور يمكن أن يلحق ضرراً عالميا كبيراً بالتقارب الذى بدا بين اليهودية والكاثوليكية منذ المجمع المسكونى . وأن هذا القداس هو أول قداس من نوعه فى كنيسة كاثوليكية . وربما حمل كنائس أخرى على السير فى نفس الطريق !

ورد الأب الشريف على هذا الهجوم بقوله :

« سألقى موعظتى عن ضحايا العدوان ، ولكنى لا أستطيع أن أضيف شيئاً آخر قبل أن ألقى الموعظة ! »

ألا توافقنى يا بنى على أن اليهود هم طاعون البشرية وسرطانها ؟

ألا تعذرنى إذا سألت البارى تعالى :

لماذا خلقتهم يارب ألتعذب البشرية ... وأنت الشفيق الرحيم ! »

٥١

لم يقف الشطر العربى المغترب فى بونس أيرس « الأرجنتين» مكتوف الأيدى أمام الضجة التى أثارها اليهود هناك ضد الكاهن الكاثوليكى أوليو مينيفيل الذى دعا إلى إقامة قداس عن أرواح الفدائيين واللاجئين العرب !

لقد رد المغتربون العرب ومعهم عدد من الأرجنتيين ، بتوزيع منشورات تندد بالعنصرية الصهيونية ، وتكشف جرائم إسرائيل ، وتشيد ببطولة الفدائيين العرب ، ووزعوا هذه المنشورات داخل الكاتدرائية الكاثوليكية فى بونس أيرس على الرغم من القرار الذى اتخذه رئيس الأساقفة بإلغاء القداس عن أرواح الشهداء العرب بحجة أن الأب أوليو مينيفيل لم يطلب تصريحاً رسميا بذلك .

وخشية إثارة مشاعر سياسية ... أتدرى يا « خالد » ماذا خلف قرار المنع ؟

نتيجة لهذا القرار تحول القداس المذكور فى الكاتدرائية إلى قداس عادى ، وقام عدد من العرب والأرجنتينيين بالانتقال من مقعد إلى آخر ، حيث وزعوا فى الكنيسة منشورات تهاجم إسرائيل والصهيونية ، وتحيى الفدائيين العرب ، وهاجمت المنشورات الزعماء الصهيونيين فى الأرجنتين ، وقالت إن وقاحتهم لا حد لها !

مازال فى الدنيا خير ... ومازال فيها أناس يشعرون شعوراً إنسانيا . يناصرون الحق . ويناجزون الباطل !

لا تكفر يا ولدى .. لا تكفر !

فمازال فى البشرية بقايا خير .. وذرات شرف ... وحبات أنفة و كرامة !

٥٢

الليلة يحتفل المسيحيون بذكرى ميلاد السيد المسيح ويشاركون أجواق الملائكة بالهتاف التقليدى :

« المجد لله فى العلا ، وعلى الأرض السلام ، وفى الناس المسرة » .

والساعة وأنا أرهف السمع إلى هذه الأنشودة من المذياع ، أجد نفسى مضطراً الأن أسألك يا « خالد » :

أى مجد لاسم الله فى عالم طغت عليه المادة ، وتحكمت فيه الأهواء الشخصية ونزعات الشيطان ؟

أى سلام ننشده لهذا العالم بالطمع والأنانية ؟

أهو سلام إسرائيل والضالعين معها . وهم أعداء السلام ؟

أية مسرة تغمر القلوب ؟

أهى مسرة أفواج اللاجئين والأطفال المشردين ، والطبيعة القاسية فى خيام مهلهلة بالية ، بعيدين عن الوطن المغصوب الذى استباحه العلج ،

نائين عن الديار والأهل والمسار ؟

أم هى مسرة العائلات التى فقدت معيليها فى ميادين الوغى والجهاد ونسفت بيوتها ، وفقدت موارد رزقها ؟

فى الواقع ليس هناك «مجد» و«سلام» و«مسرة» مالم يعد الحق إلى نصابه . والوطن إلى أصحابه . وتقلم أظافر الشر ، ويكبح جماح الظلم والطغيان .

ورجائى ألا تصدق أن هناك «مجداً» و«سلاما» و«مسرة» مادام الباطل يسود الحق . والضلال يهيمن على الهدى ، والظلام يطغى على النور .

٥٣

ألا تقاسمنى الرأى يا «خالد» بأن «إنسان» اليوم صار أسوأ حالا من «الحيوان» ؟

ألا توافقنى على أن «إنسان» اليوم يعيش فى دوامة من القلق والاضطراب والتعس ؟

ولو فتشنا عن بواعث هذا القلق الذى يعيشه «إنسان» اليوم لوجدناه كامناً فى البواعث التالية :

١ ــ اكفهرار الجو الدولى الذى يشيع القلق فى نفوس الشبان والكهول .

٢ ــ الحروب التى يشنها « إنسان » اليوم القوى على أخيه « الإنسان » الضعيف وإمعانه فى سفك الدماء .

٣ ــ ارتفاع نفقات العيش يوماً بعد يوم بسبب التقدم الاقتصادى .

٤ ــ الديون التى يستهدف لها رب البيت من جراء شراء الأدوات المنزلية الحديثة والمجوهرات والسيارة .

٥ ــ ارتفاع الأقساط المدرسية فى كافة مراحلها .

وإذا تعمقنا فى أبعاد هذا الشقاء الذى يعيشه « إنسان » اليوم وجدنا مصدره هذه المدنية الحديثة التى أغرقت الناس بكمالياتها فتضاعف همومهم وتصاعد قلقهم .

والواقع يا بنى أن نزوع الإنسان إلى مسايرة المدنية الحديثة وعزوفه عن حياة البساطة . يفضيان به إلى هذا الشقاء . وعليه أن يدفع لهذه المدنية المزيفة « ضريبة » باهظة يؤديها صاغراً . ورحم الله فوزى المعلوف القائل :

ليت عمرانه تأخر أجيا لا فكل البلاء فى عمرانه

٥٤

سرك جانب الإحسان فى كتابى « فتح الله الصقال : الرائد الإنسانى الكبير » ، وزادك سروراً واعتزازاً بالمحسن الصقال وقفه الوقت والمال فى سبيل الفقير والإحسان إلى المحتاج .

ولأنمى فيك حب الإحسان أود أن أطالعك بطرفة رواها القليوبى أحد رؤساء العلماء فى مصر وهى :

جاء فقير إلى قاض فى يوم عاشوراء (وهو عيد من أعياد الشيعة) وقال له : أعز الله القاضى ، إنى رجل فقير وذو عيال . وقد جئتك متشفعاً بهذا اليوم أن تعطينى عشرة أمناء (والمن شرعاً مائة وثلاثون مثقالا) لحماً ودرهمين لأشبع أولادى فى هذا اليوم ، ولك الجزاء على الله .

فوعده القاضى إلى الظهر ، فلما جاء الظهر عاد إليه الفقير ، فوعده إلى العصر ، فلما جاء العصر ، عاد إليه وأولاده فى المنزل قد ذابت أكبادهم من الجوع ، فوعده إلى المغرب ، وعند الغروب عاد إليه يسأل حاجته ، فقال له القاضى :

« ما عندى شىء أعطيكه » .

ورجع الفقير منكسر القلب دامى العين خائفاً من أطفاله وامرأته يفكر فى الجواب لدى سؤالهم عما جاءهم به .

وحدث أن مر وهو يبكى برجل نصرانى جالس على بابه فرآه باكيا فقال له : لم بكاؤك يا هذا ؟

— لا تسل عن حالى . .

— سألتك بالله إلا أعلمتنى بحالك .

فقص عليه الفقير ماوقع له مع القاضى ، وسأله النصرانى :

ما هذا اليوم عندكم ؟

— إنه يوم عاشوراء .

فرق له النصرانى . واعطاه أكثر مما طلب من الخبز واللحم . وأعطاه فوق ذلك عشرين درهماً وقال له :

« خذ هذا وهو لك ولعيالك فى كل شهر » .

عاد الفقير فرحاً مسروراً يحمل لامرأته وأطفاله الطعام . فلما أقبل عليهم مثقل الحمل . صاحوا بأعلى أصواتهم :

« اللهم أدخل على من أدخل علينا السرور . الفرح والبركة » .

ولما كان الليل نام القاضى فسمع هاتفاً يقول له :

« ارفع رأسك »

فرفع رأسه فإذا هو ينظر قصرين مبنيين لبنة من ذهب ولبنة من فضة فقال :

« إلمى : لمن هذان القصران ؟ »

فأجيب :

« إنهما كانا لك لو قضيت حاجة الفقير . فلما رددته صار إلى النصرانى فلان » .

فانتبه القاضى مرعوباً ينادى بالويل والثبور ، وقصد توًّا إلى النصرانى يسأله :

« ما فعلت البارحة من الخير ؟ »

— « ولم سؤالك ؟ » .

فقص عليه القاضى ما رأى وقال له :

« بعنى هذا الجميل الذى فعلته البارحة مع الفقير بمائة ألف درهم » .

فأجابه المحسن :

« خل عنك أيها المقاضي إني لا أبيع ذلك بملك الأرض ذهباً ، لأن الحسنة لا تباع ولا تشترى » .

إن في هذه القصة يا « خالد » عظة لقوم يعقلون ... فأحسن إلى الفقير وساعد المعوز بطريقة مكتوبة . وحاذر أن يشعر إنسان بما تقدم يمينك سراً .

٥٥

أريد منك يا « خالد » أن تكثر من المطالعة ، وأن تحذر هدر الوقت في الأمور التي لا تغني .

عليك يا « خالد » أن تقرأ وأنت في السيارة وفي الطيارة وفي القطار حتى تظل متصلا بالعالم وتكون ملمًّا بتطور العلوم .

لا تقرأ الكتاب للتسلية وإزجاء الوقت ، بل اقرأه كغذاء لروحك وعقلك وتفكيرك .

روت لي جدتك السيدة مارى صروف شحادة أن عم والدتك الدكتور سليم شحادة كان يقرأ كل ليلة كتاباً ... وكان الأول في صفوفه ولم يدفع فلساً واحداً لقاء دراسته الثانوية والجامعية ، بل تلقاها مجاناً في الجامعة الأمريكية ببيروت وفي جامعة كورنيل بالولايات المتحدة لأنه رجل ذكي مسلح بثقافة واسعة الجوانب والأبعاد .

فواصل القراءة . واقطع وقتك بالكتاب . وحاذر أن تمر ساعة من وقتك و لم تستفد من المطالعة . ورحم الله القائل :

إذا مر بى يوم ولم أستفد يداً

و لم أكتسب علماً فما ذاك من عمرى !

٥٦

الحبيب « خالد »

جاء فى الحكمة العربية أن العقرب سئلت مرة : لماذا تلدغين وأنت لاتأكلين باللدغ . ولا تشربين . ولا تنتقمين ، إذ تلدغين البرىء المسكين ؟ »

فأجابت : « لأن الأذى طبعي » .

ورأت حمامة رجلا مشرفاً على الغرق فألقت إليه بريشة لعله يستعين بها على العوم فقيل لها : « وما فائدة هذه ؟ »

فأجابت : « هى كل ما أستطيع أن أفعله . لأن النفع طبعى »

تتناهى إلى أنباء المساعدات التى تقدمها يا« خالد » سرا لمن قصدك واستجار بك وشعورك مع المتخلفين فى دروسهم ونصحك ذوى المشكلات المعقدة ، فأغتبط بأنبائك هذه وأزداد اعتزازاً بك

ورجائى يا ولدى أن تلقى دوماً لكل من استجار بك « ريشة » ؛ لعله يستعين بها على العوم ... فى خضم هذه الحياة

٥٧

أتطلع إلى كل بقعة من بقاع العالم فأجدها تعيش فى اضطرابات وثورات . الأمر الذى يحملنى على الكفر بالبشرية الوالغة فى الدماء . والساعية إلى حتفها بظلفها .

ولو تسامت فى البشر الثقافة الباطنية . فكانوا أبطالا فى المعتقد الذى لا غبار عليه للحدس والظنون لإشفقوا إذن . على العمر القصير يقطعونه على الأرض بالأذى والشرور . ولحملوا وجوه الحياة القبيحة . ورفعوا بينهم ألوية العدل والحق والسلام . حتى إذا انتقلوا إلى الحياة الأخرى حلموا بالأرض فى السماء عوضاً عن أن يحلموا بالسماء على الأرض !

وما أسمى أخانا شفيق المعلوف شاعراً وهو ينشد فى ملحمة « عبقر »

وما أنا فى شعرى سوى قلب مؤمن
أطل على الأحياء من جفن ملحد
سلكت سبيلا قدأكون ضللته وربة غاو بالغواية يهتدى

من عبث الأمور محاولة إصلاح هذا الكون الفاسد بأناسيه مادام البشر عبيداً للدرهم والطمع والأنانية !

٥٨

أمس وقفت مشدوهاً حائراً أمام قصة حملتنى على أن أتمنى إعادة عقربى الساعة إلى الوراء لأعيش فى زمن الصحابة ، وعلى الخصوص زمن « أبى بكر » و « عمر » اللذين بلغا من العمل فوق حد الاعتدال .

اسمع يا « خالد » هذه القصة :

بعد أن ولى « أبو بكر » الخلافة أصبح وعلى ساعده ثياب قصد بها السوق ليبيعها ، فلقيه « عمر » فقال له :

— أين تريد ؟

— السوق .

— لتصنع ماذا وقد وليت أمر المسلمين ؟

— لأطعم عيالى .

— هيا بنا إلى « أبى عبيدة » (وكان « أبو عبيدة » متولياً بيت المال) .

فانطلقا إليه فخصص بأبى بكر قوت رجل من المهاجرين ، أى فرض له مرتباً زهيداً . قبل « أبو بكر » هذا المرتب الزهيد شاكراً ، وعاد إلى مقر الخلافة يصرف شئون عباد الله . أين هذا الزهد يا « خالد » من إقبال بعض المسؤولين فى العالم العربى على جمع المال وحشد الثروات ، وملء الجيوب بالرشوات ؟

حبذا يا خالد لو عاش أبوك فى عصر أبى بكر ، وعمر ، لأنه يقدس الأمانة ويمقت الخيانة . ويبارك الاستقامة . ويلعن السحت والحرام .

٥٩

ما ذكر التاريخ أن العربى كان فى يوم من الأيام عنصر حقد وإجرام ، إنما ذكر أن العربى عنصر خير ومحبة وسلام .

نشرت صحف هذا الصباح استفتاء نشر فى إسرائيل ينضح حقداً أسود على العرب . وقد تبين أن ٩٥ ٪ من الإسرائيليين يطالبون بإبادة عرب الأرض المحتلة إبادة تامة كاملة ... وأن ٥ ٪ طالبوا بوضعهم فى معسكرات الاعتقال .

لو ذهبنا نستقصى أسباب هذا الكره الأسود لوجدناه كامناً فى التربية العنصرية ، وفى المدارس الإسرائيلية ، وهى مدارس خاضعة لإشراف الحكومة والأحزاب الحاكمة وتوجيهاتها .

لقد كان معروفاً منذ زمن طويل أن مناهج التعليم فى إسرائيل مفعمة بالأفكار الصهيونية الجهنمية وبالحقد العنصرى . ويسعى حكام تل أبيب ، خلفاء هتلر فى العالم ، لكى يغرسوا فى نفوس شعبهم ، وبخاصة فى نفوس الشبان ، الحقد والاحتقار ضد الشعب العربى ، تماماً كما يفعل حكام جنوب أفريقيا فى معاملة الزنوج ، وكما تفعل

الأقلية البيضاء الحاكمة فى روديسيا ، والاستعمار البرتغالى ، وكما يفعل البيض فى الولايات المتحدة ضد الزنوج الأمريكيين .

فكر فى هذا التميز العنصرى وعد إلى سماحة الإسلام ومثالية النبى العربى الكريم القائل يوم خطب جموع المسلمين فى حجة الوداع :

(يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم) .

فليس لعربى على عجمى فضل ، ولا لعجمى على عربى فضل ، ولا لأسود على أبيض فضل ، ولا لأبيض على أسود فضل إلا بالتقوى » .

٦٠

وقع فى يدى كتاب قديم العهد من كتب الأدب الصفراء ، ووقفت على نبأ أثار إعجابى بالسلف الصالح !

حكى أن فقيراً بمكة المكرمة قالت له زوجته الصالحة :

« ليس عندنا طعام » .

فخرج الفقير إلى الحرم ، فوجد كيساً فيه ألف دينار ، ففرح به فرحاً شديداً وسارع إلى زوجته وأخبرها بالأمر فقالت له :

« اخرج وفتش عن صاحب المال » .

فخرج الفقير وسمع صاحب المال يقول :

« من وجد كيساً فيه ألف دينار ؟

فقال الفقير :

« أنا وجدته »

فقال صاحب الكيس :

« هولك ومعه تسعة آلاف دينار » .

فقال الفقير :

« أتهزأ بى ؟ » .

فقال :

« لا والله ... لقد أعطانى رجل من أهل العراق عشرة آلاف دينار وقال لى : اطرح منها ألفاً فى الحرم . ثم ناد عليها . فإن ردها واجدها فادفع له الجميع . لأنه أمين . والأمين يأكل ويتصدق . فتكون صدقتنا مقبولة لأمانته » .

أين نحن يا « خالد » من أولئك الأمناء الذين يبالغون فى الحرص على الأمانة . ويغالون بالحفاظ . عليها وينفقون الوقت والجهد فى سبيل أدائها ؟

ألا رحم الله أيام زمان ... وسقياً لرجال زمان .. العامرة قلوبهم بالإيمان والحرص على أداء الأمانة .

٦١

هل تذكر حديث جدتك عن كتاب وضعه « فورد » الأول بعنوان : «THE INTERNATIONAL JEW»، وقد تناول فيه النفوذ اليهودى

وسيطرته على كل قطاع ... والغاية التى يهدف إليها من إفساد الضمائر وتدمير الأخلاق . وطمس معالم القيم الروحية . وبالتالى تفتيت نظام الأسرة .

وليتمكن اليهود من محاربة هذه القيم ودحرها أضرموا النار فى نسخ هذا الكتاب . وزودا العالم بأفلام تتسم بالخلاعة والمجون . وتدعو إلى المباذل . وأغرقوا العالم بصحف تفيض أعمدتها بالرذيلة والصور الخليعة .

لماذا كل هذا التخطيط يا ولدى ؟

ليفسدوا العالم و يحكموه بالجنس والدولار .

أمس وقفت على كلمة قدم بها عباس محمود العقاد كتابه :

« بروتوكولات حكماء صهيون » تؤكد لك الرأى الذى ذهبت إليه فى هذه الرسالة .

اسمع قوله (العقاد) بارك الله روحه :

« إن أصبعاً من الأصابع اليهودية كامنة وراء كل دعوة تستخف بالقيم الأخلاقية وترمى إلى هدم القواعد التى يقوم عليها مجتمع الإنسان فى جميع الأزمان ...فاليهودى «دركيم » وراء علم الاجتماع الذى يلحق نظام الأسرة بالأوضاع المصطنعة . ويحاول أن يبطل أثرها فى تطور الفضائل والآداب . واليهودى — أو نصف اليهودى «سارتر» وراء الوجودية التى نشأت باسم تعزيز كرامة الفرد ثم جنحت إلى حيوانية تصيب الفرد والجماعة بآفات القنوط والانحلال .

وضع « شحور » حاخام إسبانيا الأول كتاباً وجهه إلى السنهروين

الكبير الذى كان مركزه إستانبول . ومن الوصايا التى وجهها للشعب اليهودى هذه الوصية :

« حاولوا أن يصير أولادكم محامين . واهتموا بأن يتداخلوا دائماً بأمور الدولة . حتى متى تمكنتم من قبض زمام الحكم . تمكنتم من الاستيلاء على العالم والانتقام منهم » .

يالهول ما أقرأ يا ولدى !

ويالفراسة من صاح يوماً بأعلى صوته :

« اليهود طاعون البشرية الفتاك » .

٦٢

أمس حدثتك عن النفوذ الصهيونى وانتشاره فى كافة أنحاء المعمورة ، ورويت لك ما فعله اليهود بكتاب « فورد » .

واليوم وقفت على البيان الذى ألقاه بنيامين فرانكلين ، العالم والمؤلف السياسى الأمريكى الكبير ، وهو يعد من أبرز رجال الفكر فى القرن الثامن عشر ، على الأمريكيين فى سنة ١٧٨٩ فى موضوع الهجرة اليهودية إلى الولايات المتحدة فى ذلك الوقت .

وهذا البيان المحفوظ فى «معهد فرانكلين بفيلادلفيا» ولاية بنسلفانيا — يمكن أن يعد نبوءة عن الخطر الصهيونى الذى يهدد الشرق الأوسط وأمريكا نفسها والعالم بعد حوالى ٢٠٠ سنة من ذلك التصريح .

فى يوم من أيام عام ١٧٨٩ عقد فى كارولينا الجنوبية مؤتمر وطنى . فأدلى الأمريكى الشريف بنيامين فرانكلين بالبيان التالى :

« إن هناك خطراً جسيما يهدد الولايات المتحدة . هذا الخطر الجسيم هو اليهود . ففى كل بلد حل فيه اليهود عملوا على الهبوط بالمستوى الخلقى و درجة الأمانة التجارية . وقد ظلوا دائماً جزءاً مضطهداً لايندمج فى الوطن الذى يعيشون فيه ، وهم يحاولون خنق الأمم ماليّاً كما فعلوا فى البرتغال وإسبانيا .

« وما برحوا أكثر من ١٧٠٠ سنة يندبون حظهم السيئ بدعوى أنهم طردوا من وطنهم . ولكن أيها السادة إذا أعطاهم العالم المتمدن اليوم فلسطين ، فسوف يجدون أعذاراً قوية لعدم العودة إليها .

لماذا ؟ لأنهم مصاصو دماء ، ومصاصو الدماء لا يمكنهم العيش على مصاصى دماء . إنهم لا يستطيعون العيش فيما بينهم ، بل يجب أن يعيشوا على المسيحيين أو غيرهم ممن لا ينتمون إلى عنصرهم .

« وإذا لم يستبعد اليهود من أمريكا دستوريا على مدى مائة سنة على الأكثر ، فسوف يتدفقون على هذه البلاد بأعداد كبيرة تطوع لهم حكمنا وتدميرنا بتغيير نظام حكومتنا الذى بذلنا نحن الأمريكيين ، دماءنا وضحينا بأرواحنا وممتلكاتنا وحرياتنا الشخصية فى سبيله . وإذا لم يستبعد اليهود خلال ٢٠٠ سنة ، فإن أبناءنا سوف يعملون فى الحقول لإطعامهم ، فى حين يرابطون هم فى بيوت المحاسبة يفركون أيديهم فرحين .

« إنى أحذركم أيها السادة : إذا لم تقصوا اليهود عن هذه البلاد إلى الأبد فإن أبناءكم وأبناء أبنائكم سوف يلعنونكم فى قبوركم ؛ إن مثلهم العليا ليست مثلنا ؛ وحتى لو عاشوا بيننا أجيالا فلن يتغيروا ؛ كما لايستطيع الفهد أن يغير بقع جلده ؛ إنهم سيقضون على معاهدنا ؛ فيجب إقصاؤهم بحكم الدستور » .

لعل أهل العقول من الأمركيين بعد هذه المصارحة من أمريكى نبيل غيور على وطنه يصحون من غفوتهم الدهرية السرمدية .

٦٣

فى رسائل سابقة ألمحت إلى وجود عناصر يتجسد فيها الخير والمحبة والسلام فى هذا العالم ... حتى بين اليهود أعدائنا .

وأمس قرأت كلمة فى جريدة « فايننشال تايمز » بقلم السيد بيليتش قال فيها :

« إن العرب يشعرون بأسى عميق إذ يرون أن أراضيهم تنتزع منهم لإسكان النازحين من ذوى الإجرام الأوربى . لقد سمح للتشكوسلوفاكيين بإخراج الألمان من أرض السوديت ، ومنح البولنديون أرضاً ألمانية سابقة ، أما اليهود فقد أطلقت يدهم لسلب العرب أرض فلسطين ؛ لماذا ؟

ما الذى جناه العرب ليستحقوا مثل هذه المعاملة الفاحشة ؟ »

هل كنت تقرأ يا « خالد » قبل انتظام حركة الفدائيين العرب

تصريحا مثل هذا التصريح بقلم أوربى؟

سوف تقرأ أكثر من هذا بعد أن تعم الحركة الفدائية كل شبر فى فلسطين المحتلة . عندها تكثر الأقلام الحرة وينتصر الحق على الباطل.

ولابد للحقيقة فى النهاية من أن تنتصر بأصدقائها ، وبالمؤمنين بها ، وحاملى لوائها .

٦٤

روى لى شاب فلسطينى قادم من الأرض المحتلة أن إسرائيل تعمد إلى تجويع الطلاب العرب وحرمانهم تلقى العلم إلا فى حدود الشهادة الابتدائية ، وتحويلهم على الصناعات والمهن ، كالتجارة والحدادة و(الشوفرة).

سمعت هذا ورحت أستقصى البواعث والأسباب التى حملت الشاب الجرىء سرحان بشارة سرحان ، النازح عن وطنه بالنبوت ، على اغتيال روبرت كندى ، ولدفاعه عن إسرائيل ضد العرب فى خطاب انتخابى .

وبعد طواف ذهنى خرجت بنتيجة واحدة هى أن المعاملة اللاإنسانية التى يلقاها العرب الفلسطينيون ، والتى تتنافى مع أبسط قواعد حقوق الإنسان ، تحمل العربى على الكفر بالمثل العليا ، وغسل اليدين من كل فضيلة ، لأن الغرب واقف وقفة الاستخذاء من إسرائيل

الرامية إلى إذلال العرب والسيطرة على مرافق رزقهم .

وما لم يصعد العرب نضالهم فستحقق إسرائيل أهدافها الخبيثة . لا قدر الله .

٦٥

من المفارقات التى أثارت دهشتى وذهولى التناقض الملحوظ بين يوم ... وآخر .

فقبل عام كان بعض ساسة الغرب وصحفييهم يصفون الفدائيين العرب بالوحوش ... البرابرة ... قطاع الطريق ؛ ولكن سرعان ما غير هؤلاء الصحفيون والساسة نظرتهم إلى أولئك الفدائيين : فوصفوا حركتهم بأنها حق مشروع لاسترداد وطن مسلوب .

فى مطلع عام ١٩٦٩ زار لبنان جورج غروس ، وزير الأنباء الفرنسى السابق ، وأحد كبار الاختصاصيين بشئون الشرق الأوسط ، وكان أول تصريح أفضى به : « أن المقاومة الفلسطينية أصبحت الآن تشكل قوة متفجرة بحيث ستتمكن فى المستقبل من منع الدول العربية من تقديم أية تنازلات فى سبيل التوصل إلى تسوية سلمية » .

وأضاف غروس يقول :

« إن الفلسطينيين أصبحوا يشكلون قوة سياسية كبيرة من الصعب تطويقها ، وفضلا عن ذلك هى قادرة على الحركة ومعارضة الأنظمة

العربية . بالإضافة إلى مقدرتها على وضع الشرق الأوسط فى وضع ثورى » .

خصصت الإذاعة الفرنسية فى باريس ساعتين لشرح حقيقة أحداث الشرق الأوسط . وتحدث فى هذا البرنامج ديفيد روسيه النائب الديغولى الذى صرح بأن موقف رجال المقاومة الفلسطينية مشابه لموقف أعضاء حركة المقاومة السرية الفرنسية ضد الاحتلال النازى خلال سنوات الحرب العالمية الثانية » .

وتحدث جاك بيرك المستشرق اليهودى الفرنسى فى برنامج « المائدة المستديرة » التلفزيونى . فأشار إلى الحق التاريخى للعرب فى فلسطين والذى يرجع عهده إلى ثلاثة عشر قرناً .

أرأيت يا « خالد » السحر الذى تصنعه قوة المدفع ؟

أرأيت كيف ينظر الناس إلى القوى ويمجدونه . مادام متمنطقاً بالصاروخ والقنبلة ؟

ردد معى يا « خالد » قول « الشاعر القروى » فى قصيدته « عيدالفطر

صياماً إلى أن يفطر السيف بالدم وصمتاً إلى أن يصدح الحق يافمى

٦٦

أبرزت صحف العالم أن عدداً من الطلاب البريطانيين سيرتدون ملابس عربية تقليدية عشية عيد الميلاد ، ويمرون فى عربة تجرها

جياد فى منطقة الخوانيت الرئيسية فى لندن ؛ لجمع التبرعات للاجئين الفلسطينيين ، وسيوزع هؤلاء الطلاب نحو عشرة آلاف منشور على طول الطريق الممتد من ساحة أوكسفورد إلى محله مول .

وأضافت البرقيات العالمية أنهم استأجروا حصاناً وعربة لهذا الغرض ، حيث يركب سبعة من الطلاب الراشدين وخمسة من الأولاد العربة التى ستسير بهم عبر الشوارع .

وسيقوم ٢١ طالباً بتوزيع منشورات تصور الحالة السائدة فى مخيمات اللاجئين خلال فصل الشتاء . وتذكر المنشورات أن ٤٠٠ ولد فلسطينى توفوا لإصابتهم بالتهاب رئوى خلال عيد الميلاد الماضى . وخلال عيد الميلاد هذا سيقاسى مليونان من الفلسطينيين الآلام نفسها .

هذه خلاصة المسيرة الطلابية .

ولو كانت لى دالة هؤلاء الطلاب المهذبين لقلت لهم :

« اغزوا داوننغ ستريت ، مقر رئاسة الوزراء ، وقولوا للمسؤولين هناك :

« أنتم رأس الداء وأصل البلاء » .

يذكرنى الحديث الذى سقته إليك فى هذه الرسالة بقول الشاعر العربى :

وكنت كذباح العصافير دائباً وعيناه من وجد عليهن تهمل

فلا تنظرى « ليلى » إلى العين وانظرى

إلى الكف ماذا بالعصافير تفعل ؟

٦٧

من أغلى أمانيّ وأشهاها أن أراك تحمل شهادة جامعية عالية ، وتؤسس أسرة وتختار شريكة حياتك.

وشريكة الحياة التي أتمناها لك هي أن تكون عربية . تشعر شعورك وتحس حسك . ولعلك ذاكر أمنية وديع الصافي لابنه في أغنيته الشهيرة ومطلعها :

الله يرضى عليك يا إبني ظهري انكسر والهم ذوبني
خذ « ليلى » بن ضيعتنا بترتاح معها وما بتتعبني
يا ابني عاد رب الخير عم يهديك الله يرضى عليك يا إبني

ولعلك ذاكر كذلك أبيات « الشاعر القروي » عندما تحببت إليه فتاة إنكليزية اسمها « مود » . وعرضت عليه الاقتران بها ، لكنه لم يستجب لهذا العرض ، للكره المستحكم بين قومه وقومها :

ولو لم تكوني فرنجية لكنت سعادي قبل سعاد
ولكنني عربي المنى عربي الهوى عربي الفؤاد
لعمرك يا « مود » لولا ذووك لما ميز الحب بين العباد
ولا أكرهوا شاعراً أن يقول هذي البلاد ، وتلك البلاد
فهم أوغروا بالعداء الصدور وهم أضرموا النار تحت الرماد
فلا تعذلي شاعراً زاهداً وكم هام بالحب في كل واد

فإنى حرام على هواك وفى وطنى صيحة للجهاد

فاحذر يابنى الفتاة الأجنبية ؛ إذا كنت تنشد الراحة وتستهدف السعادة ، واذكر المثل العامى : « زوان بلادك ولا قمح الغريب » .

المثل العامى : « زوان بلادك ولا قمح الغريب » .

٦٨

أكدت فى مطالعاتى واستقراآتى أن العربى إنسان وديع مسالم مادمت لم تؤذه ؛ لكنه أنوف عيوف فى دفع الضيم ، وصد عوادى الظلم ...

طالعت اليوم تصريحاً للمناضل الشريف سرحان بشارة سرحان ، وقد أفضى به من زنزانته فى سجن لوس أنجلس جاء فيه :

« إن العالم كله عنف وفوضى وقلاقل ... ما الذى حصل الأيام الحلوة ... أيام السلام والهدوء ؟ » .

تصور يا ولدى هذا الشاب النبيل يتحسر وهو راسف بأغلاله على حياة الهدوء والطمأنينة والاستقرار ... يتساءل وهو يحاكم بتهمة قتل روبرت كندى ، عن الأيام الحلوة التى عاشها الناس بمحبة وإخاء وسلام !

ولو فتش « سرحان » عن أسباب هذا القلق الذى يسود العالم لوجده فى الأنانية والسيطرة وحب الذات .

٦٩

سأل مسافر شاباً يرعى غنما . عليه أمارات الذكاء :

« ما أثقل من السموات »

فأجابه الشاب :

« البهتان على البرىء من فم كاذب جرىء » .

ذكرت هذا الجواب البليغ بعد أن ودعتك فى بيروت وعدت إلى عمان ، فزارنى صديق معاتباً على أمر لم أجترحه . . . واسمع الحكاية :

روى « أحدهم » لصديقى الزائر أنه شاهدنى وإياك على ضفاف البردونى . فخف للقائنا ، والترحيب بنا ودعوتنا إلى « مزة » معه ، لكننى تجاهلت ذلك « الوجه » الخشن البشع . . . و لم ألق عليه تحية المساء .

بعد هذه « الرواية » الملفقة لم أقسم لصديقى المعاتب بالثالوث الأقدس . . . و لم أنف « الرواية » . . . بل ضحكت . . . ورويت له جواب الشاب الراعى : « البهتان على البرىء ، من فم كاذب جرىء » .

٧٠

أمس قرأت مقالا للناقد اللاذع « برنارد شو » جاء فى ختامه :

« يقولون إنى كاتب ساخر . . . ولكن لم تبلغ بى السخرية حدا

يجعلنى أذهب إلى الولايات المتحدة ... وأشاهد تمثال الحرية على بابها » .

بعد هذا القول الجرىء . . هل تصدق أن الولايات المتحدة هى مهد الحرية والديمقراطية ؟

قل : « كلا » وأنشدهم قول الشاعر محمد الأسمر :

قل لمن يدعون فضلا على النا ... س أرونا فضائل الفضلاء
إن منها ألاّ تكونوا طغاة ... بل تكونوا للناس كالآباء
إن منها ألا تكونوا قساة ... بل تكونوا فيهم من الرحماء
إن منها أن تجعلوا العلم نعمى ... لا سبيل البأساء والضراء
رب ؛ عم الفساد والشر فابعث ... للورى مصلحاً من الصلحاء

ترحم يا « خالد » على أعداء الحرية والديمقراطية . . . وأنشدهم قول « شوقى » :

وإذا أصيب القوم فى أخلاقهم ... فأقم عليهم مأتماً وعويلا !

٧١

أرجح أن دروسك تحول دون مطالعتك الصحف اليومية للوقوف على حركة الاعتصام النسائية التى شملت كل بلد عربى .

فأمس كان يوم تضامن النسوة العربيات مع شقيقتهن المرأة العربية الفلسطينية المناضلة ضد بربرية العدو ووحشيته فى الأراضى العربية المحتلة.

ولقد أضافت السيدات العربيات إلى الاعتصام . . . الصيام عن

المطعام . . . والقيام بحملة تبرعات لشراء الثياب والأغذية لأبناء الوطن المسلوب .

لم تكن هذه الظاهرة معروفة فى العالم العربى من قبل ولكن بعد أن شمل الوعى القومى دنيا العرب . وهزها على المؤامرة الصهيونية أفاق العرب من سباتهم العميق ... وقدروا ما يبيته اليهودى التائه من شر وعدوان للوطن العربى .

من الكلمات التى أثارت شجنى وأكدت لى أن العرب أينما كانوا سيعون مدى الخطر الصهيونى . وسيكافحونه بجميع الوسائل . كلمة السيدة نجلاء صعب رئيسة المجلس النسائى اللبنانى ، وقد أضفت جواً إنسانياً مؤثراً على قاعة الاعتصام فى مبنى اليونسكو ببيروت .

اسمع يا « خالد » ما قالته هذه السيدة الواعية :

« إن هذا اليوم هو يوم حداد على القيم الإنسانية والأخلاقية التى انتهكها العدو الإسرائيلى بمعاملته الوحشية والبربرية لأخواتنا وإخواننا العرب فى فلسطين المحتلة .

إن الاعتصام اليوم هو تعبير عن استنكار ما يجرى من تعسف وظلم ضد أخواتنا وإخوتنا الذين يسامون العذاب والاضطهاد فى الأراضى المحتلة .

إن اجتماعنا هنا هو لتأكيد التضامن والتساند بين الهيئات النسائية فى جميع الدول العربية للذود عن الحق ومناهضة الباطل .

إن اعتصام المرأة العربية اليوم فى كل البلاد العربية هو احتجاج

على الظلم الذى وقع على العرب نتيجة عدوان ٥ حزيران (يونية) ويقع اليوم على المرأة العربية فى الأراضى المحتلة نتيجة رفضها للاحتلال .

كلنا ندرك إلى أى مدى تصل نوايا إسرائيل العدوانية ضد البلاد العربية . وكلنا نعلم كيف تمارس السلطات الإسرائيلية عمليات القتل الجماعى والتعذيب البربرى .

إنه لمن العيب فى القرن العشرين . وفى سنة حقوق الإنسان ، أن يصل مستوى الظلم إلى ما وصل إليه فى الأراضى المحتلة .

أين الضمير العالمى ؟ ولماذا لا يتحرك لهذه المأساة الإنسانية المحجلة ؟

عندما تكون القضية متعلقة بصهيونى واحد تقوم الدنيا ولا تقعد ... ولكن عندما تكون القضية قضية شعب بكامله ... يضطهد ويعذب ويشرد . فلا أحد يتحرك ».

هذه الروح العالية يا « خالد » لم يكن للبلاد العربية عهد بها من قبل لكن بعد الخامس من حزيران «يونية» ١٩٦٧ تصاعدت هذه الروح العالية فى كل قطر عربى . والأمل بالله أنها ستتصاعد ... وتشتد ... وتقوى لأن المصيبة تجمع .

٧٢

اليوم سمعت من الإذاعة السعودية كلمة للأمير سلمان بن عبدالعزيز رئيس اللجنة الشعبية فى الرياض ، دعا فيها الشباب السعودى إلى جمع

التبرعات لفلسطين . والتطوع إلى الجهاد فى سبيل أظلم قضية عرفها التاريخ . وحذر من أطماع الصهيونية بالوطن العربى . وقال الأمير فى كلمته :

« فمن أخذ القدس اليوم يأخذ المدينة المنورة غداً إذا تهاونا فى التطوع للجهاد أو التبرع بالمال . فالريال يتحول إلى قذيفة » .

هذا الكلام الجميل لم نكن نسمعه قبل النكبة الفلسطينية الثانية .

وإذا رحنا نحلل أسباب هذه المصارحة وجدناها كامنة فى القضية الفلسطينية التى هزت العرب هزاً عنيفاً ، ونبهتهم إلى ما يبيته لهم العدو من شر ومكر .

حقا يا « خالد » إن للقضية الفلسطينية وجهين هما :

(ا) الوجه الأبيض .

(ب) الوجه الأسود .

والوجه الأبيض ينطوى على توعية العرب للمصير الأسود الذى ينتظرهم إذا ظلوا سادرين فى هجعتهم ، موغلين فى غفوتهم .

فلنستبشر خيراً يا ولدى مادام الوعى القومى قد شمل العالم العربى ، وهزه إلى هذا المدى البعيد .

٧٣

بعد الخامس من حزيران (يونية) ١٩٦٧ أمنح ظاهرة عجيبة تسود العالم العربى وتدعو إلى الاعتزاز والفخر . وهذه الظاهرة لم يكن للعرب عهد بها من قبل .

قرأت أمس هذا الخبر فى مجلة عربية أسبوعية :

« تطوع الحاج محمد شيبانى ، رجل الأعمال الليبى للإنفاق على عشرين طالباً جامعياً فلسطينياً فى أوربا حتى ينهوا دراستهم » .

هل حظيت فلسطين قبل نكبتها الأولى والثانية بمثل هؤلاء الجنود المتطوعين ؟

وهل حظيت فلسطين قبل نكبتيها بمثل هذا الدعم الحاضر ؟

وهل بلغ الوعى القومى مثل ما بلغه فى العهد الحاضر ؟

أبشر يا « خالد » أنت وأبناء جيلك بمستقبل زاهر باهر ، وثق أن أمة فيها مثل هؤلاء الأسخياء الأوفياء ستخلد .

٧٤

فى رسالتين سابقتين ألمعت إلى مدى الوعى القومى الذى شمل العالم العربى ، وكان سببه قضية فلسطين وتشريد عربها ؛ وما يبيت

لها وهم من اعتداءات جهنمية .

وهاك قصة وقعت أمس مع الآنسة المهذبة باسمة حمارنة كريمة الدكتور الواعى كامل حمارنة :

دخل فدائى فلسطينى عيادة الدكتور حمارنة بعمان تصحبه الآنسة « باسمة » ويتواضع وبعبارات مهذبة قال الشاب الفلسطينى للدكتور حمارنة : « كريمتكم هذه تريد التبرع للحركة الفدائية بثلاث أساور ذهبية . وقد أكدت على أخذها بإلحاح شديد. قدرنا لها عواطفها النبيلة . لكن بحكم سنها . ولأننا لا نقبل التبرع بالحلى سألناها الاجتماع بولى أمرها ومن أجل هذا جئت لمقابلتك » .

أجاب الوالد المثالى :

« كما تشاء سأحتفظ بالأساور الثلاث لابنتى ؛ وأدفع لك غداً ثمنها نقداً » .

شكر الفدائى الشاب للدكتور حمارنة مروءته ، واعتذر عن احتمال عدم مجيئه فى اليوم التالى . إذ ربما يكون فى مهمة بعيدة .

ربما أراد الشاب إنهاء الأمر على هذا الوجه ... لكن عمك الدكتور حمارنة أصر ، وإذا كان الشاب مشغولا بمهمة فليتفضل غيره بالمجىء إلى العيادة .

وهنا تدخلت الآنسة باسمة وقالت لوالدها :

« ... غير أن هذا يكون تبرعاً منك وأنا التى أريد التبرع . تدفع

أنت النقود .. وأتقدم أنا بالأساور التى اشتريتها مما ادخرته من مصروفى .

مد الطبيب الواعى يده إلى جيبه ، وأخذ مبلغاً لقاء الأساور الثلاث وشفعه بمبلغ آخر تبرعاً منه ... لكن « باسمة » رفضت إلا التبرع بالأساور الثلاث للشاب الفدائى مرّة ثانية .

أبعد هذا الوعى فى شاباتنا وشبابنا تدعى إسرائيل أنها ستحطم الإرادة العربية ... ؟ ألا طاش سهمها ! فالتضحيات تتوالى تترى على مذبح القضية الكبرى ... حتى نظفر بالحق المغصوب ونعيد للعربى كرامته .

٧٥

مازالت الدنيا عامرة بالخير ، ومازال فيها أناس شرفاء عدول يشجبون الظلم ، ويدعمون الحق ، ويناصرون الحق والضعيف .

أمس قرأت تصريحاً لداعية هندى للقضية الفلسطينية زار الأردن حديثاً ، وقد جاء فى تصريحه :

« صحيح أننى لم أولد عربيا ، ولا أحمل الجنسية العربية ، ولكننى أعتبر أن القضية الفلسطينية قضيتى الأساسية ، ومن أجل نصرتها وقفت جهدى » .

والداعية الهندى هذا هو الدكتور كينوار سينغ رئيس مجلس السلام الدولى لطلبة الهند ، ورئيس الجمعية الآسيوية الأفريقية فى جامعة لندن .

ومن تصريحات نصيرنا الهندى قوله :

لقد تجولت فى أنحاء أوربا . وفى الكثير من أقطار العالم . وألقيت الكثير من المحاضرات عن القضية الفلسطينية . وأستطيع أن أقول : « إن هذه القضية بدأت تجد طريقها إلى عقول الشعوب الأوربية . وذلك كنتيجة حتمية وطبيعية للنضال الذى يخوضه الشعب الفلسطينى من أجل تحرير بلاده . والدفاع عن وجوده القومى فى وجه أشرس أنواع العنصرية والاضطهاد » .

والمعروف أن الدكتور كينوار سينغ حصل على الدكتوراه فى القانون من جامعة لندن . وكان عنوان « الأطروحة » التى قدمها « فلسطين » ؛ وفى الدراسة التى أعدها شرح تاريخ القضية العربية الفلسطينية وتطوراتها وباطل الوجود الصهيونى فى فلسطين .

أعود إلى تكرار ما قلت فى مستهل رسالتى إليك :

« مازالت الدنيا عامرة بالخير ، ومازال فيها أناس شرفاء عدول » .

٧٦

تسألنى رأيى فى الشعر الحديث ، وجواباً عن سؤالك هذا تحضرنى كلمتان تترجمان رأيى ، وتنطويان على الجواب الشافى :

الأولى لعملاق الأدب العربى المرحوم عباس محمود العقاد وفيها يقول :

الشعر الحديث كافة ليس شعراً على الإطلاق . إذ تنقصه الموسيقى والوزن . والشعر وزن قبل كل شيء . والوزن قاعدة فلا حساب لمن يهدم فن الشعر .

وختم العقاد كلمته بتكرار عبارة :

« الشعر وزن قبل كل شيء . والوزن قاعدة » .

والكلمة الثانية لشاعر القمر وى وفيها يقول :

« فهذا الشعر الذى يروجون له اليوم إن هو إلا صورة خنافسية بيتنزية مشوهة للنفس . ولسوء الحظ نرى أن هذه الأقيسة الغريبة المسيخة قد ألمت بسائر الفنون الجميلة من موسيقى ورسم ورقص . حتى لا يسع متينى العقيدة الذين لم تزلزلهم الكوارث إلا أن يقفوا موقف المتفرج من هذه المساخر ، يضحكون طوراً . ويتجهمون طوراً . ويبكون طوراً » .

٧٧

علمت ولا شك بأن هيئة المحلفين فى قضية المارد العربى سرحان بشارة سرحان قررت إنزال عقوبة الإعدام بهذا البطل العربى فى غرفة الغاز .

أغلب الظن أن الولايات المتحدة بتحريض من الصهيونية العالمية ستنزل عقوبة الموت بالشاب العربى تحدياً منها للعالم العربى . ولعلك توافقنى على أن سرحان « القاتل » وروبرت كيندي « القتيل » كلاهما

ضحية للصهيونية . وفى يقينى أن قرار هيئة المخلفين هذا يشكل إهانة أمريكية « جديدة » للعالم العربى بأجمعه .

ترى متى يستفيق هذا العالم العربى « الدائخ » ويقف موقف الجد والرجولة من الولايات المتحدة وبريطانيا اللتين كانتا السبب فى ضياع فلسطين وتشريد أهلها وتهويد أرضها ؟

متى يستفيق هذا العالم المتفسخ من هجعته ؟

متى ؟

٧٨

وقفت الساعة معجباً أمام رسالة وجهها المربى الكبير خليل السكاكينى إلى وحيده « سرى » يوم كان يطلب العلم فى الولايات المتحدة . وتقديراً للأفكار النيرة التى حفلت بها هذه الرسالة السكاكينية آثرت نقلها إليك . وفضلى فى هذا أننى ناقل ورسول :

« لا أحب يا " سرى " أن يكون الناس طبقات . ولكن إذا لم يكن بدّ من أن تكون هناك طبقات فإنى أعيذك أن ترضى أن تكون إلا فى الطبقة العليا . لا لتنظر إلى الناس من عل ، ولكن لتسعى إلى إنهاض الإنسانية والأخذ بيدها إلى الذروة العليا . لا أحب أن يكون هناك متقدمون ومتأخرون . ولكن إذا لم يكن من أن نسير فى قافلة الإنسانية فإنى أعيذك أن ترضى أن تمشى إلا فى الطليعة . لا لتزهى

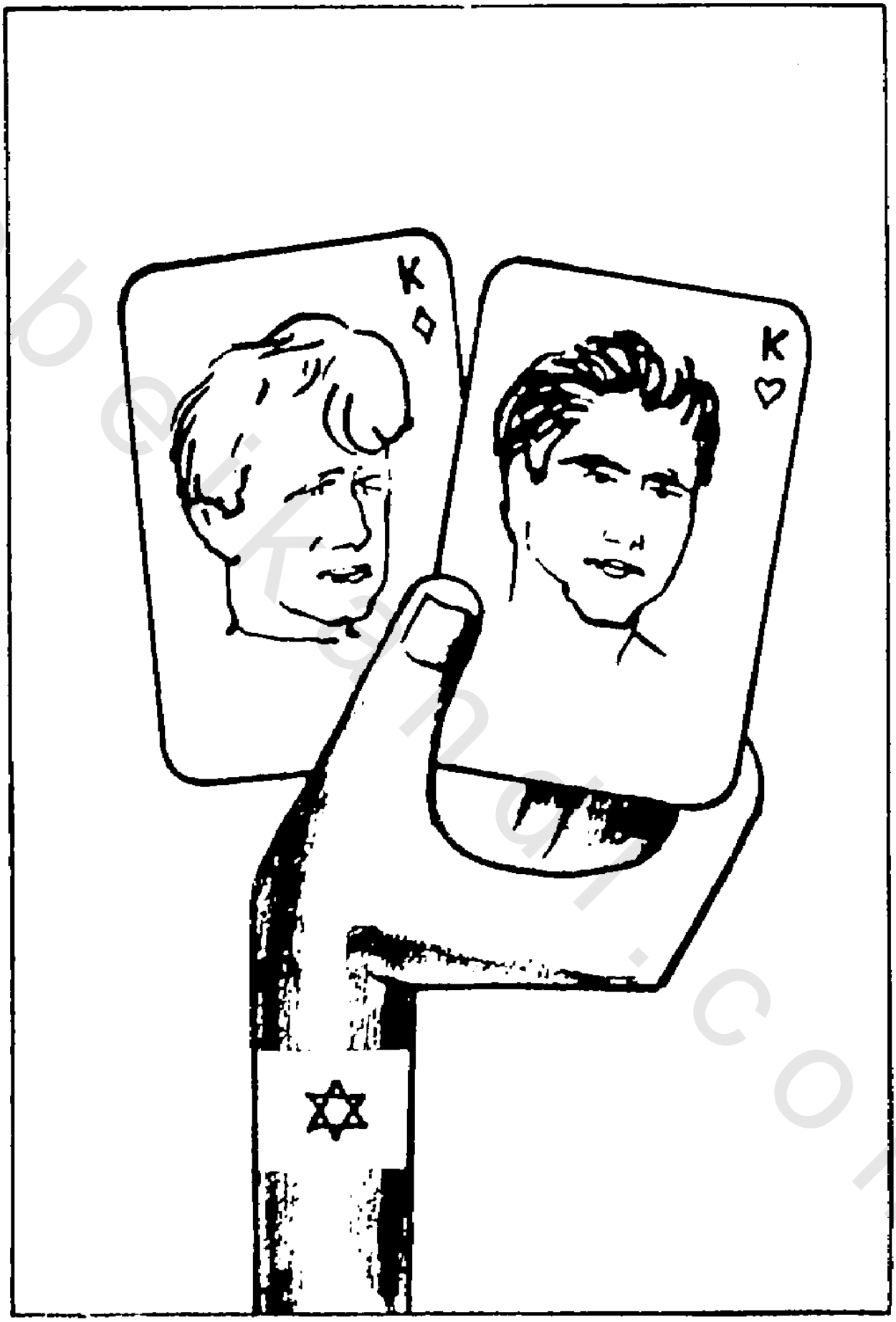

ولعلك توافقنى على أن سرحان (القاتل) و روبرت كندى (القتيل) كلاهما ضحية للصهيونية

obeikandl.com

obeikandl.com

بنفسك ولكن لتكون قدوة صالحة لغيرك . . لا أحب أن تختلف حظوظ الناس . فهذا حظه وافر . وهذا حظه خسيس . ولكن إذا لم يكن بد من أن تختلف الحظوظ فإني أعيذك أن ترضى بالنصيب الأخس لا شرهاً فإن النزوع إلى المعالى عن شره دناءة . وإن كان فى ظاهره تعالياً . ولكن لتسعد وتسعد غيرك » .

أكتفى بهذا القدر يا خالد ، وأرجو أن تركز على العبارة التالية :

« ولكن إذا لم يكن بد من أن تكون هناك طبقات فإني أعيذك أن ترضى أن تكون إلا فى الطبقة العليا » .

لاشك يا خالد ، فى أنك تزاع إلى أسمى المطالب . وأنك تحب من الأمور ما كان نبيلا جليلا .

٧٩

مازالت الدنيا بخير . . . ومازال فى بعض زواياها بعض الخير . . . وبعض الشرفاء المنصفين .

أمس ألقى السفير البريطانى فى بيروت محاضرة فى « جمعية العلوم السياسية » وقال : إن المؤرخين فى المستقبل سيسجلون أخطاء كبرى على بريطانيا . وأكد أن « وعد بلفور » كان فى عداد تلك الأخطاء الكبرى .

ومضى السفير يقول :

« إنه من الصعب التصور أنه كان فى مقدور الذين صاغوا وعد " بلفور " أن يصدروه لو استطاعوا التكهن بعواقبه » .

« لقد أدى هذا الوعد إلى إراقة الدماء وإشاعة الفوضى فى فلسطين على شكل تصاعدى . وبعد ثلاثين عاماً . عندما تخلت بريطانيا عن الانتداب . وقعت الحرب التى شملت أوزارها إنزال ظلم فادح بشعب فلسطين وإلى حرب أخرى عام ١٩٥٦ وإلى حرب ثالثة بعد سنوات » .

رحم الله خليل السكاكينى يوم قال :

« بريطانيا . بريطانيا . أنت أصل البلاء ! ليتنا لم نعرفك ولم تعرفينا . لم يكفنا الاستعمار حتى زدتنا بوعد بلفور . إنه لعار عليك أن تكونى مستعمرة . ولعار عليك أن تكونى فى سياستك خاضعة لليهود » .

ستقرأ يا « خالد » ذات يوم ربما يكون قريباً ... وربما يكون بعيداً ... أن كاتباً إنكليزيًّا شريفاً انتضى قلمه . وصب جام النقمة والعار على حكومته . لأنها تبرعت بـ « وعد » لا يقوم على المنطق ، وسخت ببلاد ليست لها .

ألم يقل كاتب أمريكى حكمة سقتها إليك فى إحدى رسائلى :

« إن الرجل الإنكليزى كريم بطبعه ... وقد يبلغ به السخاء أن يمنحك القميص الوحيد ... الذى يرتديه جاره » .

٨٠

فى الحرب العالمية الثانية أقام الجنرال ديغول بعض الوقت فى لبنان وذات يوم حمل شاب لبنانى طبقاً من البرتقال « المقشر » وقدمه للجنرال وللضباط الأحرار الذين كانوا معه فى حديقة الدار . فمد الضباط أيديهم إلى البرتقال « المقشر » . وامتنع ديغول عن مد يده إلى طبق البرتقال . ولما سأله الشاب اللبنانى عن سر امتناعه ... قفز إلى شجرة برتقال وقطف حبة منها وشرع يقشرها بيده وهو يقول :

«هكذا نأكل البرتقال بأيدينا ... فنخدم أنفسنا ... ونشعر باللذة » .

هلا تذكرت قول الطغرائى :

وإنما رجل الدنيا وواحدها من لا يعوّل فى الدنيا على أحد

وأكثر من هذا ... هلا تذكرت قول الإمام الشافعى :

« لو علمت أن الماء البارد يثلم مروءتى ... ماشربته إلا حارًّا حتى أفارق الحياة » .

هذا لون من ألوان عظمة الرجال الأفذاذ .

٨١

تذكر يا ، خالد ، روّاد الفضاء نيل أرمسترونغ ومايكل كولينز وأدوين ألدرين الذين غزوا الفضاء بعربة الفضاء أبولو — ١١ . في صيف ١٩٦٩ . وكيف وضع الأولان أقدامهما على صدغ القمر .

بعد عودة هؤلاء الرواد الثلاثة إلى مدينة هوستون بولاية تكساس . أودعوا محجرا صحيا أمضوا فيه ثلاثة أسابيع . ووضع لكل منهم في غرفة نومه جهاز هاتفي . وقيل لهم من أراد إجراء اتصال هاتفي له علاقة بالعمل الرسمي فلن يدفع أجرة لذلك الاتصال . ومن أراد إجراء اتصال هاتفي له صفة خاصة فسيدفع أجرة لذلك الاتصال .

قارن هذا الترتيب المنطقي بالترتيب المعمول به في وطنك يبد لك الفارق بعيداً . فالمسؤول عندنا يستغل وظيفته . ويؤمن اتصالاته الهاتفية الخاصة مجاناً غير مبال بالمصلحة العامة .

إن مشكلتنا يا ولدي مشكلة أخلاقية قبل أن تكون مشكلة سياسية .

٨٢

ظهيرة اليوم أرهفت السمع إلى نشرة الأخبار من لندن . فوقفت مشدوهاً أمام النبأ التالى :

« قرر الأمير شارلس ولى عهد بريطانيا وأمير ويلز التبرع بنصف دخله الشخصى من عقاراته فى دوقية كورنوال للخزانة البريطانية » .

قلت فى نفسى :

« هكذا فليكن الحكام محلقين فوق المادة .

« وهكذا فليشعر المسؤولون مع شعوبهم » .

كم تمنيت يا « خالد » أن أكون مسؤولا لسنة واحدة . لأعطى حكامنا ومسؤولينا صورة لما ينبغى أن يكون عليه الحاكم الفاضل العادل فى رعاية شعبه والبر به والعطف عليه .

٨٣

« العرق دساس » .

هكذا قالت العرب فى حكمها وأمثالها .

تعلم يا « خالد » أن « أبا إيبان » (وزير خارجية إسرائيل) هو من مواليد جنوب أفريقيا . ومن خريجى جامعة كامبردج .

وتستخدمه السلطات الإسرائيلية ناطقاً رسمياً باسمها فى الشؤون الخارجية .

هذا الرجل المتعلم فى جامعة بريطانية شهيرة يقول :

« إن العرب فى غضبتهم على حرق المسجد الأقصى يعودون إلى القرون الوسطى » .

إذا كان (أبا إيبان) مثقفاً حقاً ... فإنه يعلم أن أزهى حضارات القرون الوسطى كانت عربية . ويعلم أن عصابته تعود بادعاءاتها إلى ألفى سنة . حينما كانت الجماعة اليهودية ١٢ قبيلة ... تأتيه هنا ... وهناك .

تلك كانت حضارة وضيئة ... وهذه كانت بربرية مظلمة .

اذكر ياولدى ولا تنس الحكمة العربية : « العرق دساس » .

٨٤

عرفت يا « خالد » قصة حرق المسجد الأقصى المبارك فى القدس . وقصة الطائرة التى أرغمها فدائيان فلسطينيان على الهبوط فى مطار دمشق وعليها ستة ركاب يهود . وقد وصفت الولايات المتحدة الأمريكية عملية الطائرة بأنها « عملية قرصنة » .

بعد هذا الوصف السخيف أريد أن أسأل السلطات الأمريكية :

- ماذا يسمى حرق المسجد الأقصى ؟
- ماذا يسمى سلب الوطن العربى وتشريد أهله وتعريضهم للجوع

والبرد وتقتل البطىء ؟

● ماذا يسمى حرق البيوت وتهديمها والإغارات بالطائرات على القرى الآمنة ؟

● ماذا يسمى هذا كله ؟ هل يعاقب الغاصب لحقه المغصوب ؟ وهل يمر المعتدى القاتل من غير عقاب ؟

إن القوانين والمثل العليا والمبادئ الأخلاقية والسياسية تقف فى صف الفلسطينيين دفاعاً عن حرمهم المستباح . وليس لأحد أن يسألهم : لماذا خطفوا الطائرة . أية طائرة ؟ ولكن هذه القوانين والمثل والمبادئ نفسها تسأل إسرائيل وتدينها . وتسأل الولايات المتحدة وتدينها . وحيث تستباح القوانين والقواعد والمثل فى الاعتداء على حقوق الناس لا يطلب من الناس أن يتمسكوا بهذه القوانين والنظم والقواعد والمثل .

صدقنى ياولدى . لقد كسروا ميثاق الأمم المتحدة . وسخروا منه وأرادوا للإنسانية أن تعود إلى شريعة الغاب .

قل لى بربك يا « خالد » قل لى :

لماذا يقاس عمل المظلومين بمقياس الميثاق ولا يلزم به الظالمون المعتدون ؟

٨٥

الدنيا بخير ... مادام فيها منصفون . ومادامت فيها فئات ضئيلة تنطق بالحق وتجابه الشر .

بعد الهجوم الذى شنه الفدائيون الفلسطينيون على إحدى طائرات شركة « العال » الإسرائيلية فى مطار زوريخ فى عام ١٩٦٨ ، كتب المؤرخ البريطانى العالمى أرنولد توينبى مقالا هامًّا يدافع فيه عن عمليات الفدائيين الفلسطينيين عبر السنوات الطويلة (١٩١٧ — ١٩٦٧) .

ويقول بصراحة إن العالم أعار الفلسطينيين واللاجئين . على ضخامة عددهم . أذناً صماء . وقد تجاهل قضية الفلسطينيين . وتغاضى عن المظالم التى لحقت بهم . ولم يكن عندهم من حول ولا قوة ولا نفوذ معين أو تأثير خاص . فكان عليهم أن يدفعوا حساب المظالم التى ارتكبها الغربيون لا العرب بحق اليهود . أيمكن أن يستسلم إنسان بوداعة إلى الظلم والإهمال واللامبالاة ؟

للعربى الفلسطينى قضية عادلة منذ نصف قرن واللامبالاة العالمية تحيط بمظالمه .

إن الفلسطينيين الآن فى نطاق تضحيتهم بنفوسهم يحطمون الأعمدة كما فعل شمشون لإسقاط السقف على رؤوس أعدائهم الإسرائيليين ولا يبالون إن تساقط البناء على بقية الجنس البشرى .

فماذا يهم العربى الفلسطينى ما دامت إسرائيل لم تبق له شيئاً ؟

وماذا فعل الآخرون لنا ليبقوا من العرب الفلسطينيين أى اعتبار؟

هذا هو الخلل الذى بقوته يهز الفدائيون الفلسطينيون أعمدة الهيكل !

إن القوة بأيديهم لاستفزاز إسرائيل وحملها على اتخاذ الإجراءات الانتقامية التى من شأنها أن تزيد لهيب الحرب استعاراً بين إسرائيل والدول العربية . ومن المحتمل فى هذه المرة أن تشتعل نيران الأتون المحرقة فى كثير من البلاد ؛ ومن المحتمل أن تجرّ دول كثيرة إلى الحرب الثالثة جرا دون إرادة أو رغبة . وستكون الحرب الثالثة حرباً نووية ، لا شك فى ذلك . وسيكون تدمير إسرائيل ثمناً لتقديم الفلسطينيين العرب قرباناً وضحية على مذبح الشهوات العنصرية . وقد تنتهى القضية كلها فى القضاء على البشرية نفسها .

هذا هو التهديد الذى يحرك العالم ويحثه على النظر فى مظالم الشعب العربى الفلسطينى .

« إن الشاة أمام جزارها لم تعد بكماء ! »

وهذا الانعكاس على المأساة الفلسطينية من شأنه أن يؤدى إلى انعكاس على العالم كله .

٨٦

نشرت الصحف صورة لشبان وشابات فيتناميين فى وقفة صامتة خاشعة . كانوا يصغون لشاب أخذ يتلو عليهم وصية زعيمهم الراحل

هوشى منه . هذا الزعيم الذى أفنى شبابه وكهولته وشيخوخته فى الكفاح من أجل وطنهم . من أجلهم . من أجل الأجيال القادمة بعدهم .

سمعوا وصية الزعيم الراحل فى صمت بالغ . وخشوع . وقد دعاهم إلى :

- الحرب حتى يخرج آخر جندى أمريكى .
- الحرب حتى يتم توحيد فيتنام شمالها وجنوبها .

وعندما فرغ الشاب من قراءة الوصية . حمل الشبان والشابات بنادقهم وساروا ...

على مثل هذا الأساس تقوم الزعامات العظيمة يا« خالد » .

٨٧

قال السير سيريل هانت . وهو أستاذ شرف فى كلية علم النفس فى جامعة لندن . بعد أن أشرف على تصحيح أوراق الامتحانات العامة سنة ١٩٦٩ . وقارنها بأوراق الامتحانات العامة التى أشرف عليها سنة ١٩١٤ . إن الطلاب قبل ٥٢ سنة كانوا يقرءون ويتهجون ويفهمون ويقومون بعمليات حسابية أحسن من طلاب اليوم .

وقال السير سيريل إن الاستخدام المغلوط لأساليب التعليم « التقدمية » هو السبب فى هذا التقهقر .

قد تشجب هذا الرأى يا« خالد » وتقول إن مستوى التعليم فى

عصرك أعلى منه فى عصرنا ... وإن الكيمياء والفيزياء والعلوم التكنية متشعبة الموضوعات فى عصرك .

ربما يكون رأيك هذا صحيحاً ولكن صدقنى ياولدى :

- أننا كنا جادين فى دراستنا .
- وأننا لم نعرف فى عصرنا العبث واللهو . لأننا لم نكن عبيداً للسينما والتلفاز .
- وأننا كنا نقدر قيمة الوقت ولا نضيعه هدراً .

٨٨

أشارت الصحف ووكالات الأنباء إلى أكبر مظاهرة عرفتها الولايات المتحدة . وقالت إن هذه الحركة تشكل رداً دراماتيكياً على الرئيس نيكسون الذى سبق أن دعا إلى التوقف عن النقد العلنى لمعالجة الحرب فى فيتنام الشمالية .

لقد طلب منظمو الاحتجاج من الأمريكيين التوقف عن أعمالهم العادية والانضمام إلى مسيرات وحركات اعتصام وأشكال أخرى من الاحتجاج ضد الحرب .

وستتوقف كلياً الحياة الأكاديمية فى عدد كبير من الجامعات الأمريكية عندما يقاطع الطلاب جامعاتهم ليوم واحد احتجاجاً على الحرب فى فيتنام . وفى أماكن أخرى سيضع المحتجون شارات سوداً على سواعدهم

الذى ذهابهم إلى أعماقهم .

وسينضم جون ليرد نجل ملفين ليرد وزير الدفاع الأمريكى وهو طالب فى التاسعة عشرة من عمره — إلى صفوف المحتجين . وقد أعلن أنه سيشترك فى مسيرة تنطلق من جامعة وسكونسن .

وقفت أمام هذه الأنباء بدهشة وذهول ... وقلت فى نفسى : إسرائيل تمثل كل يوم بالعشرات من العرب . وتنسف بيوتهم . وتستبيح حرماتهم . وتدك مقدساتهم . وتعتدى بالمتفجرات على المسجد الأقصى المبارك ... فلا يحرك مواطن أمريكى ساكناً . ولا يحتج على حكومته التى تزود إسرائيل بـ « الفانتوم » و « سكاى هوك » و « النابالم » وتسمح للجنود الأمريكيين بالانخراط فى الجيش الإسرائيلى .

كان حرياً بأولئك الأساتذة والطلاب الأمريكيين أن يقوموا بمظاهرة انتصاراً للعدالة و كرامة الإنسان .

٨٩

أمس احتفلت هيئة الأمم المتحدة بعيدها الرابع والعشرين ... وكأنى بهذه المنظمة الدولية قد تناست سماحها للقوى بأن يأكل الضعيف وللغنى بأن يسرق الفقير ... وتناست كذلك الويلات التى صبتها الدول القوية منها على عرب فلسطين . توطئة لطردهم من بلادهم وتقديمها لقمة سائغة على طبق من فضة لليهودى التائه .

فى سنة ١٩٢٠ نشر جدك السياسى الشاعر المرحوم بولس شحادة

صاحب جريدة مرآة الشرق مقالاً فى مجلة هلال تناول فيه « عصبة الأمم » وختمه بالفقرة التالية :

« للساسة كلمات منمقة يخدرون بها أعصاب شعوبهم ... وليست "عصبة الأمم" إلا من هذه الكلمات الجديدة التى تتخدر بها أعصاب الناس . إنى أن يرى ساسة المطامع ألا فائدة منها فيفتشون فى حقائبهم ... ويقلبون دفاترهم ... لعلهم يجدون "ألفاظاً" أخرى يخدرون بها الأمة . ويحملونها على خوض المعامع . وهم لا يعدمون مثل هذه الألفاظ المنمقة الخلابة ... كلما احتاجوا إليها » .

ألا إنها الأيام أبناء واحد وهذى الليالى كلها أخوات !

٩٠

مرة واحدة بكى ونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا الأسبق .

بكى عندما وقف فى مجلس العموم البريطانى فى أوائل مايو ١٩٤١ . وكانت الحرب العالمية الثانية فى أوجها . وقال :

« لقد انقضى عام كامل . منذ أن وقف كل الرجال . على مختلف نزعاتهم وميولهم . صفاً واحداً لخوض غمار هذه الحرب حتى النهاية . وعندما أعود بذاكرتى إلى المخاطر التى اجتازتها بلادنا . وإلى الأمواج العاتية التى مرت عبرها سفينتنا : أشعر بأننا لسنا فى حاجة إلى الخوف » .

فلتعصف الرياح . ولتشتد الأمواج . فنحن واصلون إلى شاطئ السلامة . وفى ظرفنا القاهر الذى نعيشه ينشد الفدائى نفسه قول نعيمه :

سقف بيتى حديد ركن بيتى حجر
فاعصفى يا رياح وانتخب ياشجر
واسبحى يا غيوم واهطلى بالمطر
واقصفى يا رعود لست أخشى خطر
سقف بيتى حديد ركن بيتى حجر!

٩١

من مفارقات السياسة لا بل من « قرفها » أن تمنع السلطات الأمريكية الطالب الباكستانى طارق على — الذى وصفته الصحف البريطانية بأنه أحد زعماء الطلبة فى بريطانيا — من زيارة الولايات المتحدة وإلغاء خطبة عن النضال الفلسطينى فى ديترويت . والحجة التى استندت إليها السلطات الأمريكية فى هذا المنع أن « طارقاً » شخص غير مرغوب فيه لأنه « أحرق » العلم الأمريكى فى ميدان جورسفنور فى بريطانيا .

لقد منعوا « طارقاً » من دخول بلادهم بدعوى حرق « علم » الولايات المتحدة ... فى حين يعرف العالم كله أن الولايات المتحدة زعيمة الديمقراطية « حرقت » مئات الرجال والنساء والأطفال فى فيتنام !

٩٢

أمس عدت من زيارة مدينة « إربد » وعند وصولى إلى مخيم « البقعة » شاهدت أطفالا يلوحون بمدافع رشاشة صغيرة وهم يهاجمون تلة من الرمل وأكياسا من التراب .

ليس الأمر لعبة صبيانية يا « خالد » إن هؤلاء الأطفال الذين غاصوا فى الفهم إلى شحمة الأذن ... هم أشبال اللاجئين الفلسطينيين . وسيصبحون فدائيين فى القريب العاجل . وسينضمون إلى إخوانهم الكبار فى القتال من أجل استرداد فلسطين الغالية .

كنت قبل حركة الفدائيين أشك فى عودة فلسطين عربية . لكنى بعد أن شاهدت هؤلاء الأشبال ببزاتهم العسكرية ومدافعهم الرشاشة بتّ أومن بأن الحق العربى لن يضيع مادامت مخيمات اللاجئين تنبع بمثل هؤلاء الأشبال الذين هم أمل العرب وعدتهم فى المستقبل .

ما أجمل ماقرأت فى الصفحة الأولى من جريدة « الأنوار » تصريحاً للشيخ بيار الجميل قال فيه :

« إننا نضع العمل الفدائى الصرف فى مرتبة التقديس . لأننا نؤمن بأن القضية الفلسطينية هى قضية حق وعدل . ونعلن للمرة الألف أننا نعدّ كل فلسطينى شرد عن أرضه ولا يتحول إلى فدائى مصاباً بنقص

فى وطنيته . ونستغرب كيف أن العمل الفدائى لم يقم منذ سنة ١٩٤٨ حين شرد الشعب الفلسطينى وانتزعت أرضه !

٩٣

طالعتنى صحف هذا الصباح بنبأ طريف خلاصته أن الكثيرين من الناس يعتقدون أن أفضل . « برلمان » عرفه تاريخ العالم هو المجلس التشريعى فى لوكزمبرج الدولة الإغريقية التى انقرضت منذ ألفى سنة ونيف .

كان القانون الإغريقى يطلب من أى عضو فى المجلس التشريعى أن يلف حبلا حول عنقه وهو يقدم أى اقتراح جديد . فإذا لم يفز اقتراحه شنق بالحبل نفسه !

قابلت هذا الخبل ببسمة الرضى والتحبيذ . وقلت فى نفسى . حبذا لو طبق هذا المبدأ على العشرات من محترفى السياسة بيننا . الذين يرتجلون آراء ومقترحات تضر بالقضايا العربية ... والارتجال حرفة استساغها العشرات من ساستنا المحترفين .

٩٤

ضيف الأردن اليوم هو السيد أنطوني ناتنغ وزير الدولة البريطاني السابق للشؤون الخارجية . وكان في طريقه لزيارة الأراضي العربية المحتلة . التي كان مقرراً أن يزورها . لكن السلطات الإسرائيلية منعته من ذلك . وحجتها في هذا المنع أنه جاء نتيجة للخطاب الذي ألقاه ناتنغ في بيروت قبل قدومه إلى الأردن . وقد وصف فيه «الضفة الغربية» المحتلة بـ« السجن الكبير » . ولما أعرب عنه من تمنيات في أن تصبح « فلسطين » حرة عربية في يوم ما .

من حقي أن أتساءل يا « خالد » .

- أين حرية الرأي التي يتشدق بها سادة إسرائيل ؟
- أين حرمة الحوار المفتوح . في البلد المفضوح ؟

إن كل ما يتناهى إلينا من شعارات وادعاءات تطلقها إسرائيل هراء في هراء .

صدقني ياولدي أن الحق للسيف مهما تقلبت الأحداث . وتعاقبت الحضارات و كثرت الشعارات .

لقد كان هذا النبيل البريطاني عظيما في عيني عندما سمعته البارحة يقول في مجمع النقابات بعمان :

« أمريكا و بريطانيا مسئولتان عن خلق إسرائيل . و بريطانيا بالتحديد

تتحمل المسؤولية كاملة فى الظلم الذى لحق بالشعب الفلسطينى ومايزال .

ولقد ازداد إكبارى له عندما قال بلا مواربة ولا التواء :

« أنا فلسطينى . إن الإسرائيليين منعونى من دخول الضفة الغربية ... وبهذا سجلت فى قائمة " المبعدين " دون إدانة ولا محاكمة . لذلك لن أتمكن من الاجتماع بأصدقائى هناك . وأنا من هنا أقول لهم :

ابقوا فى بلادكم حتى ساعة التحرير » .

٩٥

فى الحفلة التى أقامتها المنظمات العربية فى عمان على شرف السيد ناتنغ الوزير البريطانى السابق . سأل أحد الصحفيين الأجانب :

١ ــ مادام الغزو الصهيونى يشكل خطراً مشتركاً على الأقطار العربية . فلماذا لا تتوحد هذه الأقطار فى وجهه ؟

٢ ــ مادامت المنظمات الفدائية تستهدف غاية واحدة . وتتعرض لحالات مشتركة من الخطر . فلماذا لا تندمج هذه المنظمات فى منظمة واحدة ؟ .

سؤالان جديران بالتفكير السليم . لكنى لم أستطع الإجابة عنهما . ولعلك وجيلك الصاعد تصنعان المعجزة باستئصال جرثومة التفرقة من الدماء التى تجرى فى عروقكم . بعد أن عجز جيلنا عن استئصالها .

٩٦

أمس امتنعت أمريكا عن التصويت على قرار اللجنة الاجتماعية للأمم المتحدة الذى يندد بإسرائيل لاستخدامها العقوبات الجماعية فى الأراضى العربية المتحدة .

اليوم شجبت الولايات المتحدة السياسة التى جنحت إليها إسرائيل فى الوطن المحتل . وعندما سئل الناطق بلسان وزارة الخارجية عن تدمير المنازل العربية فى الأراضى المحتلة كإجراء انتقامى ضد عدم تعاون السكان العرب مع قوى الأمن الإسرائيلية كان رده :

« لقد حثت مندوبتنا فى بيانها أمام اللجنة الاجتماعية الدولية على تطبيق ميثاق جنيف الرابع الذى يمنع بصورة معينة العقوبات الجماعية » .

ولما سئل الناطق :

« لماذا امتنعت الولايات المتحدة عن التصويت على قرار اللجنة الاجتماعية للأمم المتحدة الذى يندد بإسرائيل لاستخدامها العقوبات الجماعية فى الأراضى العربية المحتلة ؟

أجاب :

« إن الحكومة الأمريكية تشعر بأن قرار الشجب ذلك لم يأخذ الوضع العام فى الشرق الأوسط بعين الاعتبار ... لقد شجب القرار جزءاً واحداً من الوضع هناك ... وقد شعرنا بأن القرار ضيق جداً » .

أقرأت يا « خالد » بين السطور صفاقة الوجه كيف تكون ؟

أقرأت أن خوف الولايات المتحدة من الصهيونية العالمية هو الذى منعها من تأييد هذا القرار ودعمه ؟

لا خير فى دولة تزعم أنها ديمقراطية ... عادلة ... محبة للسلام ... وهى خصم للسلام ... والحرية ... والعدالة .

٩٧

لم يضعف إيمانى يوماً بالعربى وطيب عنصره وإقباله على البذل والفداء .

اسمع يا « خالد » هذه القصة الطريفة التى مازال بطلها العربى الفلسطينى حيّاً فى أبى ظبى .

تلقى السيد ياسر عرفات « أبوعمار » رئيس منظمة التحرير الفلسطينية رسالة مؤثرة من عامل فلسطينى يقول فيها :

« هذه هى فدية ولدى الوحيد : ٢٥٠٠ دولار أرسلها لكم دعماً لكفاح الثورة الفلسطينية » .

وقصة هذا العامل . واسمه محمد خميس فريج . ويعمل فى جمارك أبى ظبى . تتلخص فى أن ولده الوحيد « رامى » وعمره سنتان . قتل فى حادث سيارة . وتسلم ٢٥٠٠ دولار فدية عن فقده . فأرسل « شيكاً » بالمبلغ إلى « أبى عمار » قائلا له : « كنت أتمنى أن يعيش ولدى ويحمل رشاشاً وأراه متجها إلى تحرير وطنه بين صفوف أشبال وأبطال ثورتنا .

لكن المقادير شاءت أن تحرمنى هذه الأمنية . فأمرى إلى الله .

وإنى لأرسل لكم فدية ولدى من أجل دعم كفاح الثورة حتى يتحرر وطنى ..

لاتزال هذه الأمة فى خير ماداه فيها أمثال هذا المواطن المثالى . ولا أزال مؤمناً بحيويتها وتضحياتها وبذلها .

٩٨

العمل الفدائى حركة مباركة يقدسها كل عربى . ويفتديها بكل غال ورخيص . لكن المنغصات فى هذه الحركة تشعب المنظمات الفدائية وانقسامها إلى شيع وفئات ... متناسية أن جهادها واحد . وفى سبيل قضية واحدة . هى قضية فلسطين .

بعد الحرب العالمية الأولى زار السياسى اليونانى العجوز « فنزيلوس » الولايات المتحدة . فخفت الجالية اليونانية لاستقباله على الرغم من انقسامها بين الملك قسطنطين وفنزيلوس الذى كان بذاته حزباً قوياً ضد الملك فى بلاده .

وبعد وصول « فنزيلوس » إلى نيويورك استقبلته الجالية اليونانية — على اختلاف ميولها — فى إحدى القاعات الكبرى . وكان أحد الزعماء يقدم الحضور إلى السياسى العجوز فرداً فرداً قائلا :

« هذا من حزب فنزيلوس . وهذا من حزب الملك » .

ولما انتهى دور التعريف . وأخذ الحاضرون مقاعدهم . بقى فنزيلوس واقفاً حتى هدأ المكان من الضجيج . وعندئذ خاطب القوم بعبارة لاتزال خالدة على مر السنوات وهى :

« أيها السادة . سرنى تعرفى عليكم جميعاً . لكنى لم أسر لأنى عرفتكم الآن بين حزبين ... الواحد للملك والآخر لفنزيلوس . أليس عندكم حزب للأمة اليونانية ؟ » .

وفى أوائل عام ١٩٧٠ زار جورج براون نائب رئيس حزب العمال البريطانى ووزير الخارجية الأسبق . الشرق الأوسط . وردد فى القاهرة هذه العبارة غير مرة :

« لست فى جانب العرب ولا فى جانب إسرائيل ... إنما أقف مع بريطانيا . مع مصالحها . أرجو أن تنظروا إلى مهمتى فى الشرق الأوسط على هذا الأساس » .

كل ما أرجوه يا « خالد » أن يجنب الله الفدائيين الانقسام . ويحملهم على وحدة الصف . لأن الهدف واحد هو « فلسطين » الواحدة . . . لا « فلسطينات » .

٩٩

بالأمس توفى برتراند راسل الفيلسوف البريطانى داعية السلام وصاحب المواقف الفريدة . عن ٩٧ عاما . بعد حياة وقفها لخدمة الإنسانية والسلام والمساواة بين الأجناس . .

وآخر رسالة خطها هذا المفكر البريطانى الرسالة المؤرخة فى ٣١ من كانون الثانى (يناير) ١٩٧٠ . ووجهها إلى المؤتمر الدولى البرلمانى المنعقد فى القاهرة فى ٢ / ٢ / ١٩٧٠ وقد استهلها بقوله :

« إن المرحلة الأخيرة من الحرب غير المعلنة فى الشرق الأوسط ترتكز على خطر عميق فى التقدير . وإن الغارات التى تستهدف عمق الأراضى المصرية لن تحمل السكان المدنيين على الاستسلام . بل ستدعم تصميمهم على المقاومة . فهذا هو الدرس المستفاد من كل الغارات الجوية » .

وأضاف راسل قوله :

« إن تطور أزمة الشرق الأوسط يعتبر أمراً خطيراً . فقد توسعت إسرائيل معتمدة على السلاح طيلة فترة تزيد على عشرين عاماً . وبعد كل مرحلة من مراحل هذا التوسع كانت إسرائيل تقترح المفاوضات متمشية فى هذا مع الدور التقليدى الذى تمارسه الدول الإمبريالية ، لأنها تريد أن تدعم ما سبق أن أخذته بالعنف من قبل » .

أن تعيش فى التخلف حين تصبح الاحتياجات العسكرية الأسبقية على احتياجات التنمية القومية فيها .

وقال راسل فى ختام رسالته :

« إن أول خطوة نحو تسوية الأزمة فى الشرق الأوسط يجب أن تعتمد على انسحاب إسرائيل من الأراضى التى احتلتها فى ٥ من حزيران (يونية) ١٩٦٧ . ونحن فى حاجة ماسة إلى حملة عالمية جديدة حتى تتحقق العدالة لشعوب الشرق الأوسط التى عانت الظلم طويلا » .

لقد خسر المفكرون فى العالم . بل الإنسانية كلها . بوفاة الفيلسوف برتراند راسل الذى وهب حياته للسلام . وكانت وفاة هذ المفكر الحر خسارة لحقت بالفكر الإنسانى كله . وبالعقل الإنسانى . وبالمثل العليا للإنسان أينما كان .

١٠٠

الخاتمة التى أرادها الفيلسوف البريطانى برتراند راسل قبل وفاته هى الخاتمة التى أريدها يا « خالد » بعد وفاتى مع فارق فى المراسم .

قدمت جثة راسل طعمة للنيران فى محرقة صغيرة للموتى فى مدينة كولوين بمقاطعة ويلز . ولم يسبق حرق الجثمان أية صلاة أو تشييع أو أى إجراء من أى نوع كان .

ولم يؤبنه أحد بكلمة .

واستطرد راسل قائلا :

« إن العدوان الذى ارتكبته إسرائيل يجب أن يدان من حيث إنه لا يحق لأى دولة أن تحتل أرضاً أجنبية . ولأن هذا العدوان يكشف إلى أى مدى يمكن للعالم أن يتصدى للعدوان » .

وقال راسل :

« إن كثيراً من اللاجئين الفلسطينيين يعانون الآن وضعاً غير مستقر . وإن مأساة شعب فلسطين تتمثل فى أن دولة أجنبية قد أعطت شعباً غريباً وطن شعب آخر . من أجل خلق دولة جديدة . وترتب على ذلك أن أصبح مئات الألوف من العرب بلا مأوى » .

وتساءل راسل فى رسالته قائلا :

« إلى متى سيظل العالم مستعداً لتحمل ذلك الشر البالغ الوحشية الذى سلب اللاجئين الفلسطينيين جميع حقوقهم المشروعة فى وطنهم . وإن إنكار هذه الحقوق لا يعنى سوى استمرار النزاع » .

وقال راسل :

« كثيراً ما يقال إننا يجب أن نتعاطف مع إسرائيل بسبب ماعاناه اليهود فى أوربا على أيدى النازيين ، ولكنى لا أرى فى ذلك سبباً يدعو إلى استمرار المأساة التى يعيشها الشعب الفلسطينى .

« وإن ما تقوم به إسرائيل اليوم لا يمكن أن يغتفر : فإنها لا تحكم بالبؤس فحسب على عدد كبير من اللاجئين بل تخضع العرب فى الأرضين المحتلة للحكم العسكرى . وتحكم على الدول العربية المجاورة

و لم تعزف أى موسيقى أو تصعد أية صلوات .

ولم يشيعه إلى المحرقة سوى خمسة ألقوا النظرة الأخيرة على جثمانه هم : زوجته وابنه ، وزجة ابنه وسكرتيره الخاص ومدير مؤسسة راسل للسلام .

أما أنا فأوصيك بمايلى :

- ينقل جثمانى من مكان وفاتى إلى المقبرة .
- يحمل جثمانى أفراد أسرتى وإخوانى إلى المثوى الأخير .
- يوارى جثمانى فى التراب بلا جلبة ولا ضوضاء ولا صلوات .

وسلفاً أقول للذين يقرءون كلماتى هذه قبل وفاتى وبعدها إننى لست ملحداً ... فأنا أومن بالله خالق السماء والأرض ، ولكنى لا أقيم وزناً للطقوس الدينية . إذ أنها من مخلفات الوثنية .

لعلى أكون أول عربى يدعو إلى مثل هذه « البساطة » التى قد يستنكرها المجتمع العربى ويستهجنها أقاربى .

أوصيك ياولدى بتنفيذ ما قرأت سابقاً ، وأسألك أن تضع يدك على المحراث ولا تلتفت إلى الوراء .

فأبوك المؤمن بالله عرف الحياة على حقيقتها !